المكتبة الثقافية

١٧

اشتراكية بلدنا

عبد المنعم الصاوى

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
الإقليم الجنوبى
الإدارة العامة للثقافة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

طريق الغد

للأستاذ حسن عباس زكى

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢

الناشر

دار القلم

(١)

لم يكن فى حياته شىء كثير .

أم حانية .. ولكنه حنو ينطوى على غير قليل من الصرامة ، تحاول أن تكسب بها بعض صفات الرجال ! .. وأخ طفل، وجرو ، وشاة ، وبضع دجاجات، تملأ فناء الدار حركة .

وشىء أهم من هذا كله فى حياة الأسرة .. شىء عميق ورقيق فى آن .

خطاب منتظم ، أو يكاد يكون منتظما ، يصل كل خميس على وجه التقريب لا يفضه إلا هو ، ليتلو على أمه ما فيه من أخبار القاهرة .

ويعيش على هذا الخطاب أسبوعا ، وتعيش أمه كذلك عليه أسبوعا ، حتى يصل الخطاب التالى ، فتستأنف الأسرة الحياة على الخطاب الجديد .

ولم تكن هذه الخطابات تحمل دائماً على البهجة ، ولم تكن تدفع دائماً إلى الحزن ، وإنما كانت بين هذا وذاك ، على أنها كانت أبداً ، تستدر من جفون الأم سيلاً صامتاً من الدموع .

وكان عليه أن يشارك أمه دموعها ، فيتوقف عن التلاوة ، ريثما يزول من حلقه ما يكون قد سده من الغصة . . فإذا استأنف التلاوة ، فبصوت متهدج ، كالترانيم ، أو الصلوات .

وما كان أغرب ما كانت تتراءى له ، من بين غشاوة الدمع ، من رؤى وخيالات ، بعضها ذكريات . وبعضها الآخر أمنيات .

ولربما كان بعض هذه الخيالات يتراءى لأمه كذلك من بين حبات الدموع . بل ربما كان يتراءى لأخويه أيضاً ، من بين قطرات المداد .

لقد كان على يقين ، من أن المداد الذى كانا يكتبان به خطاباتهما ، كان مغموساً بالدموع .

ألم يكن عليه أن يرد عليهما بدوره مرة كل أسبوع ؟

وألم يكن يجلس إلى أمه لتملى عليه ما يكتبه ، صباح الجمعة من كل أسبوع ؟

وألم يكن يكتب الخطاب إليهما ، بمثل ما استقبل خطابهما إليه ، ودموع أمه تتساقط فى صمت ، وهى تلقى فى كل خطاب بنصائحها إليهما : أن يكونا رجلين ، بعد أن لم يعد لهما أب ، يدفع عنهما الأذى ، ويتولى عنهما مسئولية الزمن ؟

وألم يكن من عادتها أن توجه الخطاب إلى أكبرهما ، فتحثه

على ان يكون ابا لأخيه ، يحنو عليه ، ويترفق به ، لا يهمله ، ولا يقسو عليه ؟

وألم تكن تذهب إلى أبعد من هذا ، فتطالبه بأن يغطيه إذا جن الليل ، ويطمئن إلى أنه أكل حتى شبع ، ويراجع معه الدروس حتى ينجحا معا آخر العام ؟

وهكذا كان هناك شيء لا يكاد يرى ، يجمع وجدان الأسرة ، ويوجه خيالها إلى نوع من الرؤى والتصورات والأحلام ، يشد بعضها إلى بعض ، بخيط من المحنة والأسى ، والدموع .. ويدفعها إلى أن تقف صفا واحدا فى وجه الزمن ، يشد القوى أزر الضعيف ، ويأخذ الكبير بيد الصغير ، ويدارى القادر عجز المحتاج .

* * *

أما هو فلربما كانت خيالاته ورؤاه ، أثرا من آثار علاقته الخاصة بأبيه ، ونتيجة لها .

ولعله كان وهما ، ولعله كان حقا ، أن أباه كان يؤثره هو بحب خاص ، ويغمره بحنان خاص ، ويوليه اهتماما خاصا ، ولم يكن آخر من أنجب على أى حال ، فقد رزق بعده بإخوة

آخرين واحتسبهم عند الله ثم رزق بأخيه الطفل ، ومع هذا ظلت له هو هذه الحظوة وهذه المكانة .

وهو يذكر ، بين غشاوة الدموع ، أن أباه لم يكن لينام ، إلا وهو بين ذراعيه وأنه لم يكن ليصحو ، إلا وهو بين ناظريه .

فلما ساءت صحته قبل الأوان ، وبدأ يلازم الفراش ، ويعيش على الدواء وعصير الفاكهة ، كان أشد ما حز فى قلبه ، أنه لم يعد يحس ذراعيه الحانيتين حول رقبته ، قبل أن ينام ! وكان أشد ما أوغل فى إيلامه ، أنه لم يعد يسمع صوته الضاحك مع طلوع النهار !

وكثيرا ما ذهب إلى المسجد ، ليصلى من أجله ركعتين لله … وكان يركع حيث اعتاد أبوه أن يركع ، ويضع جبهته حيث كانت تستقر جبهة أبيه ، فقد كان تقديره أن هذا ، ربما كان أدنى إلى رحمة الله .

بل لقد كان يذهب إلى المسجد من الطريق نفسه الذى كان يذهب منه أبوه ، وفى طريق عودته ، كان يمر ببعض أقاربهم ، ممن اعتاد أبوه أن يمر بهم للسؤال والاطمئنان ، ويكاد — لولا الحياء — يردد نفس ما كان يقوله أبوه من عبارات .

* * *

وشىء آخر لا ينساه .

لقد كان هو وأخوه ، تلميذين فى مدرسة أقرب مدينة إلى قريتهم ، وكانت على بعد ثمانية كيلومترات من القرية .

وكانا يقضيان الأسبوع فى المدينة ، ويعودان إلى القرية ، لقضاء عطلة آخر الأسبوع .

فلما مرض أبوهما ، كان أخوه الكبير ، يفضل أن يستمرا على النظام نفسه .

أما هو ، فكثيرا ما كان يختفى عند الغروب ليعود إلى القرية ماشيا على قدميه ، فى جنح الليل ، وشىء ما يعتقد أنه عواء ذئاب ، يهزه طوال الطريق الموحش هزا مخيفا مرعبا ! وأشباح كثيرة ، يظنها عفاريت ، وراء أشجار الجميز ، أو النخيل ، أو التوت تكاد تدفعه إلى الصياح والعويل !

ولكنه كان يريد أن يرى أباه كلما استطاع .

وشىء أخير ساذج وبسيط ، ولكنه كان يحس أنه من أهم ما يحتاج إليه أبوه .

لقد كان يشترى واحدة أو اثنتين من الفاكهة التى كان يعرف أن أباه يحبها ، وكان يخفيها فى ثيابه ، خجلا وحياء ، وكان يحرص على أن يحضرها إليه طازجة قبل أن تذبل أو تجف .

وكانت هذه الفاكهة تكلفه مصروفه كله ، ولكنه كان سعيدا بهذا الشعور العميق الطيب .

أليس أبوه مريضا . . . ؟

وألا يعيش على الدواء وعصير الفاكهة ؟

وأليست هذه الفاكهة أهم لحياة أبيه ، من أن يشترى لنفسه «مصاصة» ، أوحفنة من الفول السودانى ، أو قرطاسا من اللب ؟

وما كان ألذ ما كان يشعر به ، وهو يتحسس الفاكهة فى جيبه بين الحين والحين ، حتى إذا ما وصل إلى القرية ، بعد الجهد والرعب والرهبة ، قصد إلى حيث أبوه المريض ، ووضع الواحدة أو الاثنتين من الفاكهة إلى جواره ، من غير أن يشعر بذلك أحد .

وكثيراً ما كان يجد أباه مسبلا عينيه فى استرخاء ، فيقبل يده فى صمت وهو يضع هدية يومه إلى جواره ، ويمضى كالخيال .

وقليلا ما كان أبوه يلمحه ، فينظر إليه نظرات ضعيفة هزيلة ، ولكنها معبرة عن تقدير عميق للهدية وصاحبها .

وكانت أمه تنهره على حضوره دون علم أخيه ، فى جنح الليل ، ماشيا على قدميه فى أغلب الأحيان ، هذه المسافة الطويلة . فلما اشتد المرض على أبيه سمحت لهما أن يعودا كل ليلة إلى البلدة ،

أليريا باهما ، وليراهما أبوهما ، فيقر بهما عينا ، وقد ينسى بهما الأخ الأكبر ، الذى يتمم دراسته الثانوية فى القاهرة .

وإنه ليذكر أن أمه سألت أباه عما إذا كان يريد أن يحضر ابنه الأكبر من غيبته ، فقال فى صوت هزيل مبحوح : دعوه لدراسته . . . أنا ذاهب ، ولن ينفعه إلا ما يحصله ليحلّ محلى فى رعاية هؤلاء .

ونزلت عليه هذه العبارات كالقضاء !

لم يكن من السذاجة بحيث لا يفهم معنى لقوله إنى ذاهب .

ولم يكن يساوره أدنى شك فيما يقوله أبوه ، فإن أباه لم يتحدث بغير الحق أبداً .

هو إذن ذاهب حقيقة . . هو إذن سيموت ! ولن يعود بعد ذلك يراه أو يسمع منه القصص والحكايات ، ولن يكون له مكان بين ذراعيه إذا نام ، أو بين ناظريه إذا صحا .

وفجأة انهار ، واندفع نحو أبيه يتشبث به ، كأنما يريد أن يدرأ عنه الخطر ، بكيانه هذا الصغير ! وفى نحيب متصل كالعواء ، وفى أنين وصراخ وعويل ، أخذ لأول مرة ـ لا لآخرها ـ ينادى أباه ، ويناشده البقاء . . . البقاء ، فلا يذهب عنه أبداً .

وقال كلاما كثيراً لم يعد يذكره على وجه التحديد ،

ولكنه قال كل ما حبسه طيلة هذه الأيام السوداء !

ولم يدر إلا أن البيت اكتظ بالناس ، الأقرباء والغرباء .. وإلا أن أصواتا ملأت البيت الصغير ، مختلطة مشوشة غير مفهومة ولا واضحة . وإلا أنه انزوى فى حجر أمه ، يبلل ملابسها بالدموع ، حيث كانت تجلس فى ركن من أركان البيت الصغير المظلم ، وحولها فريق من نساء يعرف بعضهن ، ولا يعرف البعض الآخر ، وجميعهن صامتات ، كأنما يترقبن شيئاً ينتظرنه بين الحين والحين .

فلما صحا ، كانت الحركة فى البيت قد اشتدت ، أما ما فى البيت من الأصوات فقد كانت خليطا غريبا من الكلام ، والدعاء ، والصلوات ، والبكاء ، والصراخ .

وقفز يعدو نحو حجرة أبيه ، فمنعوه من الدخول ! منعوه ، وهم يربتون على كتفه وعلى خديه !

وعندما أراد أن يجلس أمام عتبة الباب ، كالكلب ينتظر أوبة صاحبه ، وجد أخاه الطفل الصغير جالسا بدوره بالباب ، يدور بعينين ساذجتين فى الوجوه ، وجروه الصغير فى حجره ، ولعبه كذلك بين يديه .

ولأول مرة أحس أن عليه واجباً نحو هذا الصغير ، أن يحتضنه ، بكل ما فيه من حنو وعاطفة ، فقد أصبح عليه أن يرعاه ، كما كان يفعل معه أبوه .

ولأول مرة أحس ، أن الأبوة ليست أكثر من معنى أو مفهوم ، وأنها شئ يمكن أن يشيع بين الناس جميعاً ؛ ليصبحوا قادرين على ان يحملوه ، ويتحملوه .

لقد كان أبوه راعياً للأسرة كلها ، بل لامتدادها حيث تكمن حاجة ، أو يتطاب الأمر رعاية ، .ولكن هذه الرعاية قد انحسرت ، لتقوم بدلا منها رعاية أخرى ، تنظمها الأسرة فيما بينها و بين نفسها .

أخوه الأكبر كما جرى عرف بلدنا سيصبح هو الراعى من بعد أبيه .

والأخوة الآخرون على كل منهم أن يعاون فى تسلسل هذه الرعاية .

يكون ابنا . . . وأبا فى آن .

ابن للكبير ، وأب للصغير .

وسيكون هو من نصيب أخيه الذى يكبره ، وسيكون أخوه الطفل من نصيبه هو .

وبهذا تتدرج مسئوليات الرعاية والحنان ، فيخف الحمل ، وتتوزع الأعباء .

... فهم هذا منذ وجد أخاه الصغير إلى جواره ، وآمن به وهو يضمه إلى صدره فى قوة حامية حانية ، وتملكه الاعتقاد أن هذه هى سنة الحياة ، وأنها تسرى على كل معنى وعلى كل مفهوم .

* * *

لقد كان يسمع أباه وهو يقول فيما يقول : كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته .

ولم يكن يفهم من هذا شيئاً .

ولكنه الآن يفهم ما كان يقوله أبوه ، ويدرك المعنى الذى ينطوى عليه ، ويقبل على العمل الذى قصد إليه الحديث الشريف :

أن تتدرج مسئوليات الناس فى الحياة ، وأن يرتبط بعضها ببعض ، برباط من الرعاية والشجاعة والتضحية ، وأن يتصل بعضها ببعض ، بالعقل والقلب والإرادة ، وأن يسند بعضها بعضا ، بالتقوى والإيثار والقناعة .

وكانت التجربة جديدة عليه ، ولكنها كانت ضرورة عقلية

وعاطفية ، كما كانت كذلك امتداداً لما جرى عليه مجتمع بلدنا من تقاليد .

على أن التجربة احتاجت منه إلى كثير من الممارسة ؛ لتصبح عادة من عاداته الطبيعية ، كالنوم كلما جن ليل ، واليقظة كلما أشرق صباح ، والأكل كلما جاع ، والشبع كلما أكل ، والذهاب إلى المدرسة ، واستذكار الدروس ، وانتظار النتيجة آخر كل عام .

وأسرعت المأساة ، فأكدت هذه العادة فى نفسه ، فصار من أخيه الذى يكبره ابنا ، يعرف كيف يسمع ويطيع ، وأصبح من أخيه الذى يصغره أبا ، يعرف كيف يرعاه ويحنو عليه ، ويقومه عندما يخطىء .

ومضى عام فأتم أخوه الذى يكبره ، أو أبوه الجديد دراسته الابتدائية ، وانتقل إلى حيث أخوه الأكبر ؛ ليتابع دراسته الثانوية فى القاهرة .

وأصبح عليه أن يواجه تجربة جديدة .

لقد كانت مسئوليته من قبل مقصورة على الصغير ، الذى انشغل بجروه عن المأساة ، ولكنها اليوم أصبحت مسئولية القيام بواجبات الأسرة كلها فى مجتمع القرية .

هو الرجل ، وهو حامل اسم الوالد الذى مات .

بل هو مسئول عن أمه أيضاً ، يقضى حوائجها ، فلا تضطر إلى الخروج لقضائها هى ، بين الرجال .

بل هو مسئول عن تحمل أعباء كثيرة اخرى منوعة ، يقضى عليه العرف بتحملها ، باسم الأسرة ، ونيابة عنها .

أليس أكبر موجود من أبنائها فى القرية ؟

.. وهو بعـد لم يتجاوز العاشرة من عمره الغض اللين الرطيب ! !

* * *

هذا عن الذكريات ، التى تتخلل غشاوة الدموع .

أما عن الأمنيات ، فقد كان له معها شأن آخر .

كان الفراغ الذى ملأ حياته ، بعد موت أبيه ، كبيرا ... كبيراً جداً ، حتى لم يكن يستطيع أن يحتمله بغير هذه الأمنيات تخدره عن شعور رهيب بالوحدة ، يكتمه عن الناس جميعاً .

وكان يتحين كل فرصة لينفرد بنفسه ، فقد كان وجوده بين الناس ، يحد من أمنياته ، ويشل من حركة عقله وحركة قلبه ، بل حركة يديه . وحركات وجهه وعينيه فى كثير من الأحيان .

وبدأت العزلة تصبح طابعاً لحياته ، فقد كان انفراده بنفسه ،

يشبع حاجته الملحة ، إلى أن يملأ هذا الفراغ الكبير ، ويسد هذه الفجوة الهائلة .

كان يخرج إلى الحقول ، فما إن يطمئن إلى أنه ابتعد عن الناس ، ولم يعد فى متناول نظر أحد ، حتى يبدأ مع نفسه فى حديث طويل ، هامس أول الأمر ، ثم ناطق ومثير آخر الأمر ، حتى ليحس بعدها أن الانفعال قد بلغ به مبلغ التعب والإجهاد ، فيجلس على حافة ترعة ، أو تحت شجرة ، أو بين أعواد الذرة ليستريح .

وكان حديثه يبدأ عادة بأن يتصور أن أباه عاد . . . ولماذا لا يعود ؟ أليس الله بقادر على كل شىء ؟

ولكن الله نفسه ، هو الذى خلق الحياة ، وخلق مع الحياة الموت ، فكيف يعود ؟ .

ولكنه كان يجد الحل ، فى خياله الساذج الطيب ، فيرى أنه لا ضير ولا تناقض فى عودة أبيه ، إليه هو وحده ! يأتيه مثلا بين الحقول ، فى خلواته هذه البعيدة عن كل عين ، النائية عن كل أذن ! .

نعم يعود إليه وحده . . . يبعث . . . أليس البعث بحقيقة من حقائق الأديان؟ فإن عاد ، فلا بد أنه يعود إليه بابتسامته العريضة

الطيبة، وبحنانه المألوف، وبذراعيه المفتوحتين تتلقيانه بالأحضان الدافئة، وبالقبلات الحارة.

ولا بد أنه سيحمل إليه بعض ما يحب من الملابس، والمأكولات.

وهو يعاهده إن عاد، ألا يخبر بعودته أحدا .. سيكون هذا سرا بينه وبينه لا يعرفه إلا الله.

سيخبره بكل ما يحدث، وسيحكى له كل شيء، وسيروى له كيف حزنت أمه لفراقه.

أما إخوته، فسيقول له عن حالهم كل ما يود هو أن يعرفه.

ثم سيستشيره فيما يعن له من أمور، وسيأخذ رأيه فى كل صغيرة وكبيرة، وسيطلب معونته بالرأى المتزن الحكيم.

هل فى هذا شىء ؟.

ألا يمكن أن يحدث ؟.

لقد عاش فى مجتمع يروى الكثير من قصص الجنيات والحوريات، و « الحواديت » القديمة التى تحكيها له أمه مليئة بحوادثهن.

الجنيّة التى أعجبت بشاب من شباب القرية، فأحبته،

وتزوجته ، واشترطت عليه ألا يتزوج سواها ، وألا يخبر بزواجهما أحدا .

بل تذهب الروايات إلى أن لهما بنين وبنات ، وأن الجنيَّة الولهانة تؤدى له كل شىء ، وتسهل له كل أمر ، والويل له لو وقع بينهما خلاف .

والحورية التى قفزت من بين المياه ساعة الظهيرة ، وسحبت أجمل أبناء القرية إلى الماء ، وغطست به ، وصحبته إلى دنياها الغامضة ، حيث يعيشان الآن زوجين متحابين سعيدين .

إلى غير هذا من قصص وروايات ، فيها غموض وفيها كذلك طلاسم وألغاز .

وعالم السحر الذى يسيطر على مجتمع القرية ، وعالم البخت ، وعالم الزار .

هذه العوالم كلها .. ماذا يفرقها عن العالم الذى يتمناه ؟ .

إنه لا يريد جنية تحبه ، ولا حورية تخطفه ، ولا يريد أن يكون له بنين وبنات تحت الأرض أو تحت الماء . هو يريد فقط أن يعود إليه أبوه ، فى هذه الخلوات المنعزلة ، وسيعرف كيف يكتم السر ، كما يكتم أزواج الجنيات أسرار الزواج .

* * *

لكن .. وها هو ذا قد أقبل عليه ، فيعدو إليه كما كان يفعل حين يلقاه ، ويقبل يديه ، ويتقبل قبلاته على وجناته .

ويبدأ معه الحديث ، وللحديث دائماً بداية واحدة ، فهو يعاتبه لأنه مات !! ويجره العتاب إلى البكاء ! .

على أن هذا البكاء كان يغسل كثيراً جداً من همومه المدفونة عن الناس جميعاً حتى عن أمه ، فما إن تتطهر نفسه المهمومة ، حتى يبدأ يروى له كل ما حدث ، فى المدرسة ، وفى البيت ، وفى علاقاته بالمجتمع وبالناس .

ويتصور أن أباه يضحك لبعض ملاحظاته ، فيضحك معه ، وكثيرا ما كان يقهقه ، وهو يخبط كفا بكف .

وما إن يسأله عن شىء ، حتى يتقمص شخصية والده ، فيصطنع نبراته ، ويجيب عنه .

ويمضى هكذا ساعات طويلة ، فى أى وقت من اوقات النهار ، قد يكون ظهرا ، أو عصرا أو مساء ، أو مع الشروق .. لا يهم .

المهم أنه يحس أنه يتقابل وأبيه ، فيأخذ منه ويعطيه .

* * *

كانت هذه رؤاه ، وذكرياته ، وأمنياته ، يراها من بين غشاوة الدموع ، وربما كان بعضها هو ما تراه أمه ، وبعضها هو ما يراه أخواه ، وبعضها ، أو الشعور ببعضها ، هو ما يجعل أخاه الطفل يتكوم بجواره ؛ ليسمع ما فى الخطابات من أخبار ، عن الغائبين العزيزين ، أو إلى العزيزين الغائبين .

ومن هنا تشكلت نفسيته بشكل الجماعة التى عاش فيها ، وأدرك أنه لا يستطيع أن يكون وحده ، ولا ينبغى أن يكون وحده ، حتى لو أنه أراد .

وساعدت الجماعة حوله ، وتقاليد القرية على تأكيد هذا الشعور فى نفسه ، فأصبح نداء من نداءات الطبيعة ، ومظهرا لإرادة الله .

دعك من مظاهر الود والتراحم التى كانت تبدو فى أفق حياته.

دعك من الزيارات المتوالية التى لم تكن تنقطع .

دعك من القريبات والجارات ، يقبلن على الدوام ، لأداء واجبات المنزل عن الأم الحزينة وإعفائها من هذه الواجبات بعد ما استغرقها الحزن ، فلم تعد من القدرة حيث كانت .

ودعك من أنواع الهدايا ، التى كانت ترد على الدار بين الحين والحين ، كنوع من أنواع المعاونة على تحمل المصاب .

ودعك من البيوت تفتح للطفل الصغير ، فى أى وقت من أوقات النهار والليل لتملأ إناءه باللبن ، حتى يشبع جروه الذى يلازمه على الدوام وإناء اللبن بين يديه .

ودعك من الذين وضعوا أنفسهم فى خدمة الأسرة الصغيرة المنكوبة ، تأمر أو تشير فتجاب .

دعك من هذا كله ، فهى مجاملات عريقة فى بلدنا ، فى الريف وفى الحضر على حد سواء ، ربطت بين الناس برباط من الشهامة والمروءة على مر الأزمان .

وإنما هناك غير هذا مظاهر الحياة اليومية التى تمر بالناس ، فتضيف كل يوم جديدا ، ينطوى على كثير من المعانى ، ويقدم مفهومات جديدة للحياة .

هل نستطيع أن نحصى هذه المظاهر جميعا ، فى الحياة اليومية وفى المناسبات الخاصة ، لنقف على هذه المعانى ، وهذه المفهومات؟

ليتنا نستطيع . . . أم هل نحاول أن نتبينها من انعكاساتها على نفسية ساذجة بسيطة ، لنرى إلى أى طريق تسير وإلى أية غاية تنتهى ؟ .

هل نحاول أن نتبين هذه الانعكاسات على هذه النفسية وهى تمر بمراحل نموها ، ومراحل تطورها ، حتى لا تكون انعكاساتها

عليها ، فى مرحلة واحدة من مراحلها ، او فى سن معينة من عمرها ، غير مجدية كثيرا فيما نريد أن نتبينه ، أو نقف عليه ؟

إننا محتاجون إلى أن نعرف حياة بلدنا ، كما هى ، مرتبطة بالطبيعة التى نشأنا فيها ، وما فرضته هذه الطبيعة علينا من تقاليد ، وما غرسته فى نفوسنا من معان واتجاهات .

لأنها حياتنا . . . حياة كل واحد منا ، بجزيئاتها الصغيرة ، المنثورة فى رواسب نفوسنا

لأنها هى التى صنعتنا ، وسوت شخصيتنا بكل ما فيها من خير أو شر . . . لاندرى ! !

(٢)

كانت تجربة جديدة عليه .

ولعله لم يجد حرجا وهو عائد من مدرسته ، ظهر يوم من أيام الخميس ، أن يقف مع الواقفين من الرجال والنساء ، والأولاد يشاهد الاستعداد لفرح يقام ، احتفالا بزفاف .

وسمع فيما يسمع الواقفون أخبارا مختلفة عن هذا الاستعداد .

لقد استحضروا « غزية » من المدينة ، ترقص فلا يستطيع أحد أن يتابع حركاتها ، وتتثنى فلا يستطيع أحد أن يرفع عينيه عنها ، وتتلوى على حافة الجالسين ، فلا يملكون زمام أمورهم .

اسمها معروف ، ولكنه نسيه فى غمرة ما نسى من أسماء ، ولها فرقة من الفتيات تدور معها ، وسط حلقة الرقص ، ينشدن ويغنين ، ولكنهن لا يحجبن الأنظار إليها .

وعندما تنتهى من كل رقصة ، فإن لها عند الناس حقا معلوما ، يدفعونه فى « نقوط » يتسارعون إليه ، ويتسابقون ليقدموه ، لأنها تهبهم فرصة وضع هذا « النقوط » حيث يحلو لهم أن يضعوه .

ولكل قدره ، حسب ما يدفع من « النقوط » .

تحسب ذلك بالزمن ، حسب ما تلاحظه من قدر «النقوط» .

فإن يكن شيئا طيبا ، فهى باقية أطول ماتستطيع تهتز فى تحية وإعجاب ، وإن يكن شيئاً ضئيلا ، فهى وثبة سريعة خاطفة ، وكفاه أنها قبلت منه هذا «النقوط»!!

أماالطعام فقداستحضروا له طاهيا من المدينة أيضا ، وذبحوا له الذبائح ، وأحضروا له الخضر والتوابل ، ليعد مايرضى البطون ويحقق لأهل الفرح فرصة الإنصات إلى رأى الناس فيما قدم إليهم من شواء وألوان أخرى من الطعام والحلوى ، لا يزول طعمها من الأفواه ، إلا بعد شهور ، وقد يقسمون بها ، وفى كل قسم يرتبط اسم أصحاب الفرح بالقسم الغليظ ! !

وإن الناس ليرددون أنهم دعوا العمدة ، ومشايخ البلد والأعيان ، وشيخ الخفراء ، كمادعوا قومامن أعيان البلادالمجاورة.

أما العريس ، وأما العروس ، فإن الحديث عنهما حلو ولذيذ ، والصبيان يرددونه فى همس ، ويصفون جمال العروس وهم يتلفتون ذات يمين وذات شمال ، حتى لا يسمعهم الكبار ، ويقرنون هذا الجمال بعبارات الغبطة ، وربما الحسد ، للعريس المحظوظ !!

ويقولون فيما يقولون إن أصحاب العريس سيأخذونه إلى بيت من بيوت أصدقائه ، ليشتركوا جميعاً فى عملية استحمامه ، وسيكون عليه أن يتجرد من ملابسه القديمة ، ليبدأوا هم يغسلون له جسمه ، كما جرت بذلك عادات الشباب .

على أن عملية الاستحمام هذه لا تمضى بمثل ما يتصور الناس ، سهلة أو هينة ، فإن أصدقاء العريس من الشبان ينتهزون الفرصة ، ليضربوه ما حلا لهم الضرب ، وليصفعوه على جسمه العريان ، دون أن يجد واحداً يدفع عنه ، أو يحميه مما يكابد من هذا العذاب .

وبعض الأصدقاء يخفون بين طيات ملابسهم خيزرانات صغيرة رفيعة ، فإذا ما أتم العريس خلع ثيابه ، أخذوا يضربونه بها ، حتى ترتفع صيحاته فتتردد فى الحارة كلها ، وما من مجيب .

ما هذا ؟ هل يثأرون منه ؟ هل يؤدبونه ؟ هل يودعونه ؟

لا بد أن لذلك سبباً ، ترسب فى تقاليد القرية ، وقد يرجع الأمر فيما يعلل الظرفاء من أهلها ، إلى أنهم يعدونه لنوع آخر من أنواع الضرب ، سيتعرض له بعد الزواج ، ومن يتحمل الأقسى ، أصبح احتمال الأقل قسوة ، أمراً مقدوراً عليه على أى حال ! أو ربما لأن الزواج سيخفيه عنهم ، فلا بد إذن من توديعه

هذا الوداع الحار ، فلا ينساهم وهو فى غمرة ما ينال من حظ . أو ربما لأنه خان ودهم ، فأسرع يهجر جمعهم ، إلى حيث العروس المنتقاة !

على أية حال ، فإن هذه العملية تتم عادة ، والفرحة تملأ القلوب الشابة ، حتى قلب العريس ، وتمضى كالبرق الخاطف ، رغم ما تستنفده من وقت طويل .

وما إن تنتهى هذه العملية ، حتى يغسلوه غسلا جيداً ، ويدلكوه بماء الورد ثم يجففوه فى عناية ، ويرشوا عليه كثيرا من العطر ، ويلبسونه ملابسه الجديدة ، والشال الفاخر ، والعصا الجديدة ، ويخرجوا به وليداً جديداً نظيفاً ، فى زفة ريفية ، يرقص فيها الشباب ، ويتحاطبون ، وقد تتقدمها الموسيقى حسبما تسمح الحال ، وقد يركبونه فرساً أو جواداً ، إن أراد ، أو إن قضت بذلك طبيعة الفرح وقدر أهله بين الناس .

* * *

أما عن العروس فيقولون فيما يقولون ، إنها كذلك تستعد للزفاف بمثل ما يستعد به العريس ، فصاحباتها يقضين معها طول النهار ، فى انتظار قدوم سيدة يطلقون عليها « البلانة » لتقوم

بتهيئتها ، وتزيينها ، وترصيعها بالجواهر البراقة ، وزفافها إلى بيت العريس .

وقد تزف على محمل . . . فوق جمل ، يعدونه خصيصاً للمناسبة .

فإن لم يتوفر هذا ، فداخل « ناموسية » سرير ، ترفع بأعمدة ، يحملها أربعة من أقربائها ، حتى لا يظهر منها طرف قدم ، والويل لغريب تسول له نفسه الاقتراب من هذا الحرم .

فإذا وصلت إلى دار عريسها ، نزلت من فوق المحمل ، أو رفعوا عنها « ناموسية » السرير ، حيث لا يكون هناك إلا سيدات من قريباتها وقريبات عريسها ، و « الغزية » ، و « البلانة » وجمع من الفتيات يرقصن .

على أنها لابد أن تدخل دار عريسها من تحت أقدام حماتها.

ذلك أن تنتظر على عتبة الباب ، وتقبل حماتها ، فتجلس على الأرض ، وترفع قدمها لتدخل من تحتها عروس ابنها . . وبذا تضمن أن تستمع إلى كلامها ، وألا تخالف لها أمراً .

ويمضى الفرح للرجال خارج الدار أو فى « المنظرة » ، وللنساء داخل الدار ، حتى إذا ما حان الحين ، قصد العريس إلى عروسه ، وكانت الدخلة ! . .

وهنا يتهامس الصبيان ، وتخفت أصواتهم فى خجل وخوف فى آن .

* * *

هذا ما سمعه فيما يسمعه الناس ، وهو عائد إلى القرية من مدرسته بعد ظهر الخميس ، ولم يعلق عليه ، ولم يحفل به ، وإن يكن قد استمع إليه ، وترك فى نفسه إحساسات مبهمة عما لا يجرأ الصبيان أن يتحدثوا به ، أو يكملوه من كلام .

على أنه ما إن وصل إلى الدار ، حتى وجد شيئاً عجبا .

أولاد أعمامه من الشباب ملأوا مدخل الطريق إلى الدار ، وقد أمسكوا بعصى غليظة رهيبة .

والكبار من أقاربه ، يصيحون فى شىء يشبه النذير .

والمسنون من الجيران ، والأنسباء ، والأصهار ، يحاولون أن يخففوا حدة الغليان .

والنسوة داخل الدار ، وخارج الدار ، يبكين ويعددّن ، وللعديد فى الريف طرق شتى تحمل على الحزن ، وتقطع نياط القلوب .

ما هذا ؟ . . لم يدر شيئاً مما يراه ، ولكنه أحس أن شيئاً رهيباً على وشك أن يقع .

وكان أول ما دار بخلده ، أمه . . . ماذا جرى لأمه ؟ . . . وأخيه ؟ . . . ماذا جرى لأخيه ؟

وقفز يعدو إلى داخل الدار ، حيث وجد أمه قد تكومت فى فناء الدار ، وعلى ركبتها نام الصغير ، فما إن رأته ، حتى انطلقت فى بكاء ونحيب ، والنسوة حولها يبكين ! . . وهب الصغير مذعورا ، يحتضن بدوره أخاه .

ماذا يا أماه ؟ هل أنت بخير ؟ هل حدث شيء ؟

أليس أكبر مسئول من أبناء والده فى الدار ؟

قالت كلاماً فهم منـه أن أهل الفرح ينوون أن يدوروا فى طرقات القرية بالموسيقى ، والغزيات ، بلا خجل ، ولا حياء ، ولا تقدير لحزن المحزونين ، كـأنما الذى مات لم يكن شيئاً يذكر ، أو رجلا ليس له عيال ، ولا أسرة ، ولا حسب فى هذه البقاع !

وسمع جُملا لا يزال يذكرها تنذر بالويل !

وسمع حكما لا يزال يعيها عن الموت ، و« أنه ما مات » !

وعلى أية حال فإن الزفة لن تتم ، وستنقلب إلى مأساة .

* * *

ولم ينطق بحرف . ولم يقو على أن يروى ما شاهده ،

أو سمعه ، وهو فى الطريق إلى الدار ، وكيف وقف مع الواقفين ، يسمع فيما يسمع السامعون ، حديث الفرح والاستعداد له ، والمدعوين ، والزفة ، والدخلة ، وما يقضى به عرف القرية من تقاليد .

لقد خجل من نفسه ، وأحس أنه ارتكب إثماً ، ومن الخير ألا يصارح به أحداً .

ودخل إلى حجرة أبيه ، وبحث عن عصاه ، فوجدها فى «الدولاب» ، فأخذها فى يده وخرج ، وقد أحس أن عليه واجباً أن يحمى قداسة ما هم فيه من حزن ، من عبث العابثين .

وكم كان إحساسه بالكرامة والكبرياء ، وهو طفل لم يتجاوز سنواته العشر ، حينما خرج إلى الفناء يحمل عصا أبيه ، وقد أخذ ينصت إلى شهقات الإعجاب ، تنطلق من حلوق النسوة على اختلاف سنهن ودرجة قرابتهن أو جوارهن .

ودفعته هذه الشهقات ، إلى مزيد من الحماسة ، لوقف هذا العبث وتحطيم رأس أصحاب الفرح ، لو فكروا فى إقامة «الزفة» ، أو خطر ببالهم أن يجرحوا شعور الأسرة ، وما هى فيه من مأساة .

وانسابت دموعه ، وبين دموعه غشاوة ، تحمل على الرؤى

والخيالات ، ومنها ذكريات ، ومنها كذلك أمنيات .

وكان خروجه إلى الجمع خارج الدار ، وعصاه فى يده ، ودموعه على خده ، تعيد إليه ماضيا لذيذا لا ينساه ، وأملا غاليا يتمناه .

كان خروجه شاردا عن نفسه وعن الناس ، دافعا لأقاربه ، وبخاصة الشبان منهم إلى حماسة الثأر ، وتأديب الآثمين .

أما كبار السن ، والشيوخ المسنون ، فقد انهاروا أمام منظر طفل يحمل العصا ؛ ليكون فى مقدمة الضاربين ، وقالوا مالا يزال يذكره : من أنجب رجالا ، فإنه لا يموت أبدا . . وأخذوا يدعون الله من أعماق قلوبهم أن يطرح عليه البركة ، ويزيده قوة ؛ ليظل بيت أبيه مفتوحا عاليا عزيزا لا يقربه أحد .

* * *

لا يدرى كم من الوقت مضى ، وهو على هذه الحال ، بين الرجال .

ولكنه فوجئ بعمدة البلدة يقبل ، ووراءه مشايخ البلد ، وعدد من الأعيان ، والخفراء ، فظن أنهم قادمون لإقناعهم بالعدول عن هذا الموقف ، وترك حرية الفرح لأصحاب الفرح ، حتى لا تحدث مأساة .

على ان العمدة مال عليه ، وقبله ، وربت على كتفه ، وهو يقول له : « بارك الله فيك يا بنى ، وابن أخى الحبيب ، الذى لا يزال حياً فيك » .

وجلس على « المصطبة » خارج الدار ، وجلس من رافقوه ، بعد أن تصافح الرجال ، ونظر إلى الفتى الصغير الممتلىء حماسة وغيظاً وقال : « كان المرحوم والدك يقدم لنا قهوته عندما نجىء ... هيا اطلب القهوة للرجال »

وطلب القهوة ، وجلس العمدة يهدىء من ثائرة الثوار .

قال : « عن نفسى أنا لن أذهب إلى الفرح ، وكذلك صحبى هؤلاء ، كما أن أهل الفرح أنفسهم لن يتعدوا نطاق دارهم ، لهم أن يفعلوا فيها ما يشاءون ، وفى حدود معقولة ، ولائقة . . . لا « زفة » ولا مواكب ، ولا شىء من هذا يجرح إخوة أعزاء علينا ، ووالله أعزاء عليهم أيضاً . وماذا كانوا يفعلون ، وقد أعدوا كل شىء ، وجهزوا الأمر جميعه ؟ هل كانوا يعرفون قضاء الله وقدره ؟ هل كانوا على بينة من نوايا الغيب ؟ إنهم إخوة لنا ، ولنا فيهم أكثر من قرابة ونسب .. وهذا هو كبيرهم قادم يستأذنكم ويكرر عزاءه لكم ، ويعتذر لكم ، ويأخذ بخاطركم ، فاسمحوا له أن تقيم الأسرة فرحها فى أضيق الحدود

وتمنوا أن تنقلب حياتنا كلها إلى أفراح ، فنفرح بهذا البطل وإخوته » .

وأشار إلى الصغير ، وفى يده عصاه .

أما هو ، فقد وجد منطق العمدة معقولا ، فلما أقبل الضيف المسن الكبير ، وحمله بين ذراعيه ، وأخذ يقبله ، ويروى خديه بدموع أحس أنها صادقة وحارة ، وانسابت دموعه معه .

وجلس الرجل ، وساد الصمت ، ومرت لحظات رهيبة ، خففت حدتها القهوة وكانت قد جهزت ، وأخذت توزع على الجالسين .

مرة ثانية توجه إليه العمدة يسأله ماذا يرى ؟ هل يأذن بالفرح فى النطاق الذى حدده من قبل ؟ .

وعجب الطفل الصغير ، كيف لم يسأل العمدة الكبار من أقاربه ؟ .

وأخذته العزة بالحق وبنفسه، فقال كلاما لا يذكر تفصيلاته ، ولكنه تردد فى البلد بعدها على أنه لم يكن كلام طفل ، ولا صبي ، ولا غلام ، ولكنه كان كلام رجل من ظهر أبيه كما يقولون .

وكل ما يذكره أنه تمنى للعروسين السعادة ، وأنه يأذن . .

هكذا .. يأذن لهم بالفرح ، كما يشاءون ، فإن موت أبيه لا يعنى أن تعيش القرية فى أحزان . وأن أباه لم يمت على أى حال . ولو أنه بعث إلى الحياة لأذن بإقامة الفرح ، لأنه كان يحب أن يسعد الناس ، وكل ما يرجوه ألا يجرح أهل الفرح شعور الأسرة المنكوبة ، والله يجنبها النكبات ، ويطيل فى أعمار أبنائها .

وذهل الكبار ، وعجبوا ، وأعجبوا بالصغير الذى لم يتردد لحظة فى أن يقرر أمراً كان على وشك أن يقسم البلد قسمين ، والذى لم يرجع فيه لأحد ، حتى أمه .

أليس أكبر موجود فى هذه الدار ، من أبناء أبيه ؟.

إذن ، فليحمل العبء ، وليتحمل المسئولية ، بلا وهن أو ضعف أو تردد .

* * *

لا يدرى .. هل كانت عزلته ، وما كان يتخللها من مناجاة بينه وبين أبيه سببا فيما اتخذه من قرار ، وفيما سبب به هذا القرار ، تسبيبا منطقيا أعجب الكبار والصغار على السواء ؟.

هل كان إحساسه بأنه يلتقى وأباه ، كلما خرج بعيداً بعيداً إلى الحقول ، هو الذى أباح له حق التصرف فيما للميت من حرمة

يدافع عنها القرويون بالدم والثأر الغاضب المندفع المجنون ؟.

المهم أنه أخذ موقفاً ، أكسبه احترام الناس ، ورفع من قدره في القرية ، حتى لقد تغيرت النظرة إليه .

ولئن كان ذلك شيئاً أرضاه عن نفسه ، وزاد من شعوره بشخصيته إلا أنه رتب عليه التزامات . كانت فوق ما تتحمل سنه وتطيق .

وعلى أية حال ، لقد خرج من هذه التجربة . بأكثر من درس ، وأكثر من نتيجة .

بدأ يعرف أن المشاركة الوجدانية ليست محدودة داخل داره ، وبينه وبين أمه وإخوته ، وإنما هي شيء يمكن أن يمتد إلى خارج الدار ، حيث الأهل والجيران والأصدقاء وقوم آخرون لا تربطه بهم إلا روابط المروءة والشهامة وتقدير ما في صلات الإنسان بالإنسان من الخير والفضيلة والحق .

وبدأ يعرف أن اجتماع الرأي ، والتقاء الكلمة ، قوة رائعة هائلة لها أثرها السحري . فيما تحيا عليه بلدنا من تقاليد .

وبدأ يعرف أن الجماعة ليست كلاماً يطلق ، ولا هي كلمة تقال لا تتجاوز حروفها ، بقدر ما هي معنى مستقر في الضمير ،

يدفع الإرادة دائماً إلى أن تكون حيث تريدها الجماعة أن تكون .

وبدأ يعرف أن الغضبة بين أبناء بلدنا ليست إلا نوعاً من رقابة المجتمع على سلوك الأفراد أنفسهم ، إذا انحرفوا ، أو خولت لهم نفوسهم أن يشذوا عما تعارف عليه المجموع .

وبدأ يجد تفسيرات جميلة لما يشاهده ويراه ، وكانت كل هذه التفسيرات تنتهى به إلى أن مجتمع بلدنا مجتمع يقظ قوى ، لا يقر إلا ما هو حق وخير ، وأن الانفراد فيه بشذوذ أو انحراف نوع من فرض شيء عليه ، ليس من طبيعته ولا من طينته يقاومها المجتمع كله ، فيقومها فى أغلب الأحيان .

وبدأ يتكشف له من دنياه ، مالم يكن قادراً من قبل على أن يراه ، فإن رآه لم يكن يفهمه ، فإن فهمه ، ففى نطاق محدود .

* * *

المهم بعدها أن الضيف المسن الكبير عاد إلى ذويه مسروراً مما رأى وسمع وأن العمدة انصرف شاكراً ، كما انصرف من جاءوا معه من الأعيان ، والمشايخ والخفراء .

وأهم من هذا أن الضيف المسن الكبير ، أرسل رسله إلى من سبقت دعوتهم إلى حضور الفرح من غير أقاربه ، فى البلد والبلاد المجاورة ، يسحب دعوته لهم ، مجاملة لأهل الميت العزيز ، ومحافظة على التقاليد .

وتم الفرح فى نطاق ضيق جداً ، ولم تسمع القرية لغطاً ولا « زغردة » ، ولا طبولا .

ونام شباب الأسرة وكبارها مرتاحى البال لما وصلوا إليه من حل لمشكلة كادت تصل إلى البندر ، وتصبح قضية تشغل البوليس والنيابة والمحاكم سنوات .

ثم لا تكون بعد ذلك راحة لبال .

أما النسوة فقد وجدنها فرصة ، للتعديد والبكاء ، بصرف النظر عن الفرح وأهل الفرح والحدود التى اتفق على أن يتم فيها الفرح .

وهل يجوز أن يجتمعن ، وأن يتم ذلك فى بيت ميت ، وأن تكون بينهن زوجة الميت وأمامها طفل صغير يتعثر فى خطاه .

هل يجوز أن يتم هذا ، ولا يغتنمن الفرصة للعديد والعويل والبكاء ؟

إنهن قد يفعلن ذلك منفردات ، و بلا مأتم ، و بلا ميت . . . فكيف إذا اجتمعن فى مناسبة كهذه ، وفى بيت كهذا ؟ .

* * *

ومع المساء انصرفت النسوة ، فعاد إلى أمه .

وضمته أمه وقبلته ، دون أن تقول شيئاً ، أو يسألها هو عن شىء .

وكان الخطاب التقليدى فى الانتظار ، فنزع غلافه ، وبدأ يقرأه لها ، فتستمع إليه ، وإلى ما فيه من أخبار .

ولأول مرة لم يحس أنه محتاج إلى البكاء .

لماذا ؟ وكيف تم هذا فجأة ، وبلا مقدمات ؟ .

إنها التجربة المفاجئة صهرته ، وشدت من عزماته .

وهل كان يليق به ، بعد أن أصبح رجلا بين الرجال ، يقرر ويتخذ مثل هذا الموقف ، أن يعود فيحيا على الدموع ؟ .

إن التجربة أقوى من الدموع ، وهى أقدر فى غسل ما فى النفس من الحزن ، والمحنة .

ولقد مر بالتجربة الأولى بنجاح ، فلم يعد أمامه من سبيل إلا أن يمضىَ فى الطريق ، حتى لا ينكص على عقبيه .

على أنه أحس ما تحمله أمه من حزن ، وأشفق عليها من أن يهلكها الاستمرار فى هذا الحزن .

وبات ليلتها يحدث أباه بما حدث منه ، على أنه لم يشعر أنه حدثه كما يحلو له أن يحدثه .

ومع شروق شمس الصباح ، كان بين الحقول ، بعيداً بعيداً ، يتحدث مع أبيه بالطريقة التى لا يحسن حديثه معه بدونها .

(٣)

تجربة جديدة حدثت له ، وكان يتمناها ، منذ تجربته الأولى .

كان يتمنى أن تصادفه ، فلا يرتب لها أو يتعجلها . كان يكفيه أن يترقبها ، ولا بأس أن يحلم بها بين الحين والحين .

فمنذ خرج من تجربته الأولى ، بأن المشاركة الوجدانية ، حقيقة من حقائق بلدنا وأن دائرتها أكثر سعة من أن تكون مقصورة على أسرة بعينها ، أو على ظروف بعينها ، وأنها تستوعب أهل القرية جميعاً ، فتكون بينهم رابطة هائلة ، تمثل إرادة مجتمع بلغ من شفافية الحس وعمق الشعور ، والتكافل ، والتكامل ، حداً جعله يحمى حقوق الآخرين ، حتى فى الأحزان ! بل يعتبر الاعتداء على مثل هذا الحق ، اعتداء على شىء مقدس ، كالاعتداء على الشرف أو الفضيلة أو الدين .

وأدرك لأول مرة ، أن هذه المشاركة لا تتأتى إلا لقوم بلغت فيهم الحساسية ، درجة من الإشراق النفسى والسمو العاطفى تجعلهم يقدسون ما فى النفس من دقائق ، وما فى الإنسان من معنويات ، وما فى الحياة من روحانية ، تقديسا يدفعهم

إلى أن يستهينوا بأى لون من ألوان التضحية ، مهما بلغت !

وغمره شعور بالثقة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، والاطمئنان إلى هؤلاء البسطاء السذج من أصحاب الجلاليب الزرقاء .

ولم يعد يخاف من تحمل ما ألقاه عليه القدر من مسئوليات ، ولم يعد يخشى أن تلين قناته ، وهو يواجه المستقبل ، بل لقد علمته التجربة كيف يمارس اطمئنان النفس ، وهدوء البال والإيمان العميق ، بأن فى بلدنا خيرا كثيرا .

على أنه كان يعود إلى هذه التجربة كثيرا ، كأنما يحلو له أن يجترها بين الحين والحين .

وحين كان يفكر بصوت مسموع ، فإنه كان يذكر هذه المشاركة الوجدانية ، أو اشتراكية الوجدان .

وحين كان يفكر بلا صوت ، فإنه كان يفكر وهو شارد الذهن ، تائه الخيال ، فيما سمعه عن الفرح وإجراءات الفرح ، و « الغزية » ، و « البلانة » ، والعروس والعريس ، وأصوات عالية ترتفع بالتصفيق . وأجسام بضة تهتز بالرقص وأنغام نشوى تحطم اتزان الشيوخ .

هل صحيح ما سمعه ؟ . . وكيف يكون هذا الفرح الذى يتحدثون عنه . ؟

إنه لا يذكر أنه حضر فرحا ، وإنما تروى له أمه أن قريبا

له تزوج وهو رضيع ، وكان فرحه كبيرا ، حفل بكل أنواع الطعام والمسرات .

وهو لا ينتظر من أمه أن تحدثه عما إذا كان قريبه هذا استقدم «غزية» أم لا ! ولا أن تروى له كيف استقبل الرجال هذه « الغزية » ، وكيف كانوا يدفعون لها النقوط !

وكان يدرك أن أمه لن تسمح له بأن يسأل عن مثل هذه الأمور .

ولم يكن من طبيعته أن يتحدث مع أطفال القرية فى شىء من هذا ، فقد كان بينه وبين هؤلاء الأطفال حجاب . فهو يذهب إلى المدرسة كل يوم ويستذكر دروسه فى المساء ، وهم يقصدون إلى كتاب القرية فى الصباح ، ويعاونون فى أعمال الحقل فور انصرافهم من المدرسة . وهو أكبر مسئول فى القرية من أبناء أبيه ، والبيت مفتوح باسمه ، وعليه واجبات استقبال الرجال والتحدث إلى الرجال ، وهم صغار يلعبون بلا مسئوليات ولا واجبات ولا التزامات .

هل يسأل الرجال ؟ . وكيف يسأل الرجال ؟ وكيف يستطيع أن يسال الرجال ؟

على أنّ ما سمعه من كلام ظل يراوده بين الحين والحين ،

حينما كان يخلو إلى نفسه، وكثيراً ما كان يخلو إلى نفسه .

كان يتمنى أن يشهد فرحا ؛ ليرى بنفسه .

وعندما كانت تراوده هذه الأمنية كان يخجل من نفسه ، فإن حداد الأسرة ، لا يزال قائما ولا يليق أن يحطم هذا الحداد ، بهذا التمنى .

لقد ثارت قريته ، لتدافع عن قدسية أحزانه ، وهبت تنذر بالويل ، لمن يعتدى على حرمة هذه الأحزان .. وكان يمكن أن تقع حوادث ، وأن يصاب ناس ، فكيف به هو ، صاحب هذه الأحزان يتمنى مثل هذه الأمنية الآثمة ؟ ! !

* * *

على أن الأحزان لا تدوم ، فما هى إلا شهور ، حتى انتهى حداد الأسرة ، وجرف تيار الحياة ، حواجز الموت . وعادت للقرية ابتسامتها الطيبة ، ورجع كل شىء إلى ما كان ، إلا أمه ، التى ظلت فى حداد وسواد ، وإلا هو الذى ظل يعيش مع أبيه وله معه بجوار كل ترعة حديث ، وعند كل شجرة نجوى ، وبين أعواد كل زراعة رواية ، وإلا أسرته ، التى طوت أحزانها فى قلبها ، وأعفت مجتمع القرية من أثقال هذه الأحزان ومسئولياتها .

وكان ذلك دليلا جديداً على نوع من التنظيم الوجدانى بين أهل بلدنا .

فإن المشاركة الوجدانيــة ، أو اشتراكية الوجدان فى طبيعتنا ، لا تؤدى أبداً إلى استغلال العاطفة ، كما لا تعنى فرض نوع من احتــكار مشاعر الناس ، لمصلحة فريق من الناس .

والمجتمع المشرق المتسامى المهذب ، الذى أقام من نفسه قواعد نظم بها مشاعره ، وقوم بها مقدساته ، لا يمكن أن يقبل ، أن تصبح هذه القواعد استغلالا أو احتــكارا .

لقد شارك مجتمع القرية الأسرة فى أحزانها ، ولـكنه وضع لذلك حدودا إنسانية ، تتحملها طاقة الناس ، وتتطور مع تطور حياتهم .

والحد الذى اصطلحت عليه مجتمعاتنا ، فى مطلع هذا القرن كان عاما كاملا .

ولعله الآن أصبح أربعين يوما .

ولعله يقصر أو يطول ، وفقا لمقتضيات التطور .

فى هذه الحدود ، كان مجتمع بلدنا يطبق اشتراكية الوجدان ، تطبيقا عنيفا ، لا يقبل المناقشة .

أما إذا مضت مدة الحداد ، فقد أصبح من حق الناس

ان يعودوا يمارسون حقوقهم فى البهجة ، وفى السعادة ، وفى المتاع ، بغير أن يتعرضوا لرقابة المجتمع ، أو يقعوا تحت طائلة ما يفرضه من عقوبات .

على أن ذلك لا يعنى أن تنحسر جميع أنواع المشاركة ، أو تزول مظاهر اشتراكية بلدنا ، فى علاقات المجتمع بالوحدة الاجتماعية التى تكون فى حاجة إلى رعاية المجتمع .

وعلى أن ذلك لا يعنى أن تنحسر جميع أنواع المشاركة ، حتى الوجدانية منها ، وإنما تلتزم حدودا لا تتعارض وما للناس من حقوق . كما تخضع للكثير من الاعتبارات ، كدرجة القرابة أو النسب ، أو الجوار .

على أنها لا تعوق نشاط المجتمع ، ولا تستغله ، ولا تحتكره .

* * *

وتأتيه أمنيته من غير انتظار .

ففى مساء يوم من الأيام ، كان عائدا من رحلته الخلوية ، مجهدا مكدودا ، فوجد جمعا من نساء ، يعرف بعضهن ولا يعرف الباقيات . وكن يتحدثن إلى أمه عن أسرة من أسرات القرية ، وعن ابنة من بنات هذه الأسرة ، وكيف أنها كبرت وأصبحت عروسا مستوية ، فارعة رائعة . تفتن الأنظار .

وقالت واحدة إنها تخشى لو تركتها ، وهى على هذا الحسن ، وهذا الجمال ، أن يسارع إليها الخطّاب ، ولهذا فهى تستشير امه فى أمرها : كيف تظن فيما لو خطبتها لابنها قبل أن يطيش ، ويفسد ، ويصبح كبح جماحه عسيرا .

أترى إلى الطريقة المهذبة اللينة ، فى طرق الموضوع ؟

أترى إلى رعاية ما تعيش فيه هذه الأم التعسة من مأساة ؟

وأسرعت أمه تجيب بأن ذلك واجب ، وأن من الضرورى ألا تفوت هذه الفرصة ، فأسرة الفتاة قوم طيبون ، والولد ابن حلال، وكلاهما يستحق الآخر ، والله كفيل بأن يتمم بالخير والسعادة ، ويوفر لهما ما ينشدانه من الهناء ، ويرزقهما بالصالح من الأبناء .

واختفى هو ليسمع بقية الحديث .

ولم يكن الأمر محتاجا بعد هذا ، إلا لأن تؤكد كل منهن أنها تتطلع إلى اليوم الذى يكبر فيه أبناؤها ، وتخطب لهم أجمل الفتيات ، وتقيم لهم الأفراح ، وتشهد فى حياتها أفراح أبناء أبنائهم إن شاء الله .

وطلبن منها أن تشرفهن يوم يحدد الفرح ، قريبا بإذن الله،

قبل أن يصرف الرجل ثمن القطن ، ولا يجد ما يدفعه مهرا للعروس .

وقالت : إن شاء الله .

ولكنها قالتها فى لهجة فيها بعض من مرارة ، لم تستطع أن تداريها على أية حال .

وقلن : والعريس إن شاء الله يشرفنا . . .

قالت : إن شاء الله .

وقالتها أيضاً فى لهجة فيها بعض من مرارة .

وأضافت بأنها ترجو ألا يكون مشغولا بمدرسته ، ليحضر .

وهنا أدرك أنه هو المقصود بكلمة العريس . .

وكان التعبير عنه بأنه عريس ، كافيا لأن يثير فى نفسه عشرات من الإحساسات .

هو عريس !

كذلك الذى تحدثوا عنه يوم دُخْلته .

يأخذه أصحابه ليستحم ، ويضربونه ، ويصفعونه ، وينظفونه ويخرجون به فى زفة بين الصياح والإنشاد والطبول ، إلى حيث تتم دخلته ، على عروس ، بارعة الجمال ، رائعة الحسن فارعة العود ! !

* * *

وما إن خرجت النسوة ، حتى بدأت أمه فى بكاء صامت حزين ، ولم يكن محتاجا إلى أن يسألها فيم بكاؤك ياأماه .

لقد كان يعرف أنها نهايات المسائل تتلاقى ، ولقد ذكرتها نهاية من هذه النهايات ، بنهاية تمكنت فى أعماقها ، وأثار حديث الفرح كوامن اللوعة فى قلب حزين .

على أنه كان مشغولا بالفرح ، وبالأمنية التى واتته من حيث لم يحتسب .

ولم ينته الأمر عند هذا ، فما هى إلا لحظات ، حتى طرق الباب ، رجال يعرف بعضهم ولا يعرف الآخرين .

وكان طبيعيا أن يفتح لهم ، وأن يرحب بهم ، وأن يطلب لهم الشاى ، بعد أن مضى عهد القهوة السادة ، بمضى فترة الحداد .

ولما أتموا شرب الشاى ، وفرغوا من السؤال المكرر المعاد ، بمختلف الصيغ والأساليب عن الصحة والعافية ، ولما أتموا الدعوات له ولإخوته ، بمختلف الصيغ والأساليب أيضا ، أن يحفظه ويحميه ، ويحفظ إخوته ويحميهم ، ويوفقهم ، ليعوضوا أباهم ، فيستمر بيته مفتوحا ، وتستمر ذكراه على كل لسان .

وما إنْ أتموا هذا كله ، حتى فاتحوه فى أمر الخِطبة والزواج

فى أدب وخجل وحياء ، كانما لا يريدون أن يثيروا احزانه ، أو يعيدوا إليه ذكرى فقد أبيه .

وكانت دعوة للحضور ، وكان قبول .

وكما هى عادة أبناء بلدنا ، لم يشاءوا أن ينصرفوا إلا مؤكدين من قلوبهم ، أن عليه أن يحضر ، فالفرح لا يتم بدونه ، وأنهم يدعون الله أن يروا إخوته ويروه ، دائماً فى أفراح .

وأزف موعد الفرح ، وكان يتعجله فيما بينه وبين نفسه ، ويتمنى لو أنه أغمض عينيه وفتحهما فرأى نفسه بين مظاهره التى سمع عنها ، ولم يرها ، ولم يجربها من قبل .

ولقد بدأ يلتفت إلى العريس ، ويتأمله ، ويختلس النظر إليه كلما صادفه يصلى فى المسجد ، أو يسير فى طرقات القرية .

لم يكن ليحفل به من قبل ، بل لم يكن يعنى حتى بمعرفة اسمه ، فإنه لم يكن فى نظره إلا عددا من الأعداد ، ليس فيه ما يثير إليه الانتباه .

على أنه اليوم « عريس » ، وسيقام من أجله فرح ، وزفة وستعيش القرية ، وربما بعض القرى المجاورة ، ليلة على الأقل فى أفراح من أجله .

أما العروس ، فإنه لم يكن يعرفها من قبل ، ولم يسمع عنها

شيئا ، بل ربما لم يرها على الإطلاق ، فلما أصبحت عروسا ، تذرع بالحيلة حتى رآها ، وملأ بصره منها ، ، وتأمل ما روته النسوة عن محاسنها ، وأخذ كلما واتته فرصة يختلس النظر إليها ، وهو يتصورها فى زينة عروس ، على جمل ، أو تحت ناموسية ، فى طريقها إلى منزل عريسها ، حيث يصبح عليها أن تدخل من تحت قدم حماتها ، لتضع نفسها تحت أمرها ، ولا ترد لها كلمة .

وكان كلما أزف موعد الفرح فكر ماذا سيفعل هو فى هذا الفرح.

سيذهب طبعا ، وسيجلس بين الرجال ، وسترقص «الغزية» أمامه وتتمايل .

أتراها تلتفت إليه وهو صبى لا يملأ عينيها ؟

وهل تؤثره هو على رجال ذوى شوارب كالصقور ، فى أياديهم عصى تكسو مقابضها قشرة من ذهب براق ، وفى جيوبهم كثير من المـال ؟ .

فإذا كان نقوط ، وإذا كان لابد له من أن يدفع كما يدفع الآخرون ، وإذا كان لابد من أن يضع النقوط ، حيث يختار ، فهل تراه يستطيع أن يضع هذه النقوط حيث يشاء ؟

ثم هل تعطيه أمه ما ينبغى أن يدفع من النقوط ؟ .

وهنا كان يقف قليلا ليفكر فيما يواجهه من ظروف ترويها له أمه بصراحة وصدق .

إن الأسرة تمر بضائقة ، وهى لاتدرى كيف ستصل إلى حل لهذه الضائقة .

هل يضيف إلى ماتعانيه الأسرة ، عناء جديدا لأنه يريد أن يحضر الفرح ، ويشارك فى البهجة ، ويدفع نقوطا كما يدفع الآخرون ؟ .

وفكر فى أن يذهب لأمه يخطرها بأنه لن يذهب إلى الفرح ، فقد كان يلاحظ أنه كلما أزف موعده ، يزداد ارتباكها . وكان يقدر أنها لا تعرف من أين تدبر ما يستعين به هو على دفع النقوط ، والمشاركة فى الفرح ، كما يشارك فيه الآخرون .

لم يكن فى ظنه أن هناك التزامات أخرى غير هذه النقوط ، ولقد تحدث عنها إلى أمه مرة فى حياء ، وسألها عما إذا كان ذلك من ضرورات الأفراح ، ولما أكدت له أمه ذلك ، فرح بهذا التأكيد ، لأنها إذن ستدبر له الأمر ، فلما لاحظ ارتباكها بدأ يلوم نفسه على ما حدثها به ، وأخذ يفكر فى مصارحتها بأنه لا يريد أن يشترك فى هذا الفرح ، ليعفيها مما هى فيه من ارتباك .

* * *

وأعفته أمه ، من هذا التردد ، فقد نادته قبل الفرح بيومين وقالت له : إن علينا أن نستعد للمشاركة فى الفرح يا بنى ، بما يقضى به عرف بلدنا ، وأن نجامل الناس بمثل ما اعتادوا أن يجاملونا به ، إن لم يكن بأكثر .

وروت له مجاملات أهل العريس وأهل العروس للأسرة فى مناسبات سابقة ، وأن علينا أن ننتهز هذه الفرصة لنرد لهم هذه المجاملات .

وسردت قائمة طويلة من هذه المجاملات التى لم تكن تخطر له على بال .

قالت مما قالت : عندما ولد أخوك الأكبر يا بنى ، أرسلوا إلينا قفصا مليئا بالدجاج ، وعندما ولد أخوك الذى يكبرك أرسلوا شوالا مليئا بالأرز ، وعندما ولدت أنت أرسلوا صفيحة من السمن ، وعندما ولد أخوك الأصغر أرسلوا له من الملابس ما يكفيه .

وعندما مات أبوك أرسلوا نصف أردب من القمح ، وصفيحة من السمن ، وعدة أرطال من البن .

وعندما تزوج ابن عمك أرسلوا له ملابس الزفاف .

وعندما تزوجت ابنة عمتك أرسلوا لها الحلوى والكعك .

وهكذا لهم علينا مجاملات كثيرة يابنى ، ولا بد لنا من انتهاز

هذه الفرصة ، لرد بعض هذه المجاملات .

وعجب مما سمع ، فإنه لم يسمع به من قبل .

وعجب من أن أمه تدخل مجاملات الآخرين ، ابن عمه وابنة عمته مثلا ، ضمن ما تلقته الأسرة من مجاملات .

ولكن أمه فسرت له ذلك بأن على من يقدر أن يتحمل مسئولية من لا يقدر ، ولقد اعتاد أبوك أن يرد المجاملات عمن لا يقدر على ردها من أقاربه ، وها أنت ذا فى مكان أبيك ، وعليك أن تتابع ماجرى عليه عرف بلدنا من تقاليد .

ولم يعرف ماذا يقول ! .. ولكن كيف ومن أين ، وهو واقف على ضائقة الأسرة ، وحيرة أمه حيالها ؟

على أنها أعفته أيضاً من أن يسأل أو يناقش ، فقالت له إنها باعت قطعة من مصاغها . حتى توفر ما تفرضه تقاليد بلدنا على الأسرة من الإلتزامات ، وأنها حصلت على ما يكفى للوفاء بهذه الالتزامات ، وسيفيض بعد ذلك ما ترسله إلى أخويه بالقاهرة ، فهى تعرف أنهما لا يطالبان بحاجتهما كلها ، مؤثرين أن يصبرا على الحاجة على أن يصعبا الأمر على أمهما المسكينة .

* * *

وفتحت له هذه المعلومات آفاقاً جديدة ، يفكر فيها .

إذن ليس فرح بلدنا مقصوراً على الزفة أو «الغزية»، او الطباخ يستدعونه من المدينة ليعد أطايب الطعام.

وليس فرح بلدنا هو دقات الطبول، أو أصوات المغنين، أو راقصات تنثنى وتتلوى وتنساب.

وإلا لكانت جميعاً جوفاء.

وإنما فرح بلدنا، فى اشتراكية الشعور بالمسئولية الجماعية، وفى إيمان مجتمع بلدنا بأن توزيع الحمل يخفف من ثقله، ويجعله فى قدرة طاقات الناس.

فرح بلدنا فى أنه فرح بلدنا كلها، لا فرح واحد من أبنائها، ولا واحدة من بناتها، ولا أسرة أو أسرتين من أسراتها، ولكنه فرح يشارك فيه الجميع بما يستطيعون أن يقدموا من عون حقيقى، يمكن الأسرة من تحمل ما تواجهه من مسئوليات.

وبدأت نفسه تتطلع إلى الوقوف على مزيد من هذه الأمور.

وأخذ يسمع من هنا أو من هناك، أن العمدة أرسل عجلا كبيراً لأهل العريس، وأن شيخ البلد أرسل القمح ليطحن، ويحمل إلى بيت العريس ليخبزوه، وأن أحد الأعيان اشترى ملابس الزفاف، للعروسة، وأن عائلة من العائلات اشترت لها مصوغها، وأن السرادق الذى سيقام، نقطة قدمها واحد، «والغزية»

التى سترقص ، نقطة من واحد ثان ، وأن أهل العريس وأهل العروس ، لا يتكلفون إلا ما يتكلفه أى واحد ممن شاركوا بهذه المساعدات .

بل إنه ليسمع ما هو أكثر دلالة على اشتراكية الأفراح فى بلدنا .

فأهل بلدنا يقدرون ما يقع على عاتق الأسرة الجديدة من التزامات ، وما يرتبه عليها المستقبل من مسئوليات ، فمعنى الزواج أن أسرة جديدة تتكون فى بلدنا ، وأنه سيكون على هذه الأسرة أن تدبر لنفسها معاشاً وأن يكون لها مورد ترتزق منه .

ومجتمع بلدنا يؤمن بأن هذه ليست مسئولية هذه الأسرة الجديدة وحدها ، ولكنها مسئولية المجتمع كله ، بل ربما آمن بأنه حق مقطوع للأسرة الجديدة ، على المجتمع كله .

وفى هذه الحدود من الفهم ، وفى هذه الحدود من تقدير المسئولية ، فإن مجتمع بلدنا يضع البذرة الأولى من بذور دعم الأسرة الجديدة ؛ لتثمر بعد ذلك ثمراتها ، وفقا للطاقات التى تنميها ، ووفقا للمستويات المختلفة كذلك .

إن العريس يتلقى صباح اليوم التالى لزواجه او يوم الصباحية ، نقوطاً من نوع جديد .

لقد مضت ليلة الفرح ، وأصبح الصباح لتواجه الأسرة الجديدة التزامات المستقبل ، ونحن ناس عشنا على أن نتقاسم ما لدينا من الرزق ، وأن نحب للآخرين ، مثلما نحب لأنفسنا ، وألا نغمض جفوننا لننام ، وحولنا جفون ساهرة من الحاجة ، وألا نلقى بأجسامنا لنستريح ، وحولنا أجسام نهكها الحرمان .

وقد سمع أن أبناء القرية يذهبون فى يوم الصباحية إلى العريس بنقوط ، أغلبه نقود ، وبعضه معاونات عينية . وكذلك تذهب النساء إلى العروس .

وبعض هذه العينيات مما تحتاج إليه الأسرة الجديدة فى بناء مستقبلها ، وكفالة رزقها .

فأهل العروس مثلا يهدون العريس يوم الصباحية جاموسة ، تملأ البيت لبناً وسمناً وجبناً ، وتعين فى الحقل على أداء واجبات الزراعة .

وقد يهدونه شيئاً غير هذا من الدواب النافعة .

والعريس والعروس يجمعان هذه النقوط ، ليقيما بها حياتهما الجديدة ، وليتعاونا بها على توفير ما يحتاجانه من مطالب الحياة .

فإن تكن الأسرة الجديدة غير محتاجة إلى تأمين هذا الجانب السريع من حياتها ، فإن مصير هذا النقوط قطع ذهبية

من الحلى ، تتحلى بها العروس ، فإذا ما دهمتها الأحداث وجدتها ثروة مدخرة تواجه بها هذه الأحداث .

مثلما فعلت أمه مثلا أمام الضائقة التى تعانيها الأسرة .

ومثلما ظلت أمه تفعل بين كل حين وحين ، لتواجه بهذه الثروة احتياجات الأسرة كلما استبدت بها حاجة .

* * *

شغلته هذه الأمور الجديدة على سمعه وعلى علمه عن تفصيلات ما كان يفكر فيه بالنسبة للفرح ، وتاق له أن يرقب هذه الأمور عن قرب ، ليرى كيف تكون الصورة النهائية لهذه الاشتراكية فى أفراح بلدنا ، أو الاشتراكية فى تحمل أثقال المسئوليات .

فلما أصبح صباح الفرح ، وجد كثيرين من الناس يعدون ركائبهم بالسرج ، ويهيئونها لتكون فى خدمة الفرح وأصحاب الفرح . ومع كل دابة من دواب هذه الركائب ، واحد من الشباب ارتدى أفخر ما عنده من ثياب ، ليقوم بالمهمة التى يطلبها منه أصحاب الفرح .

إذا احتاجوا لشىء ما من سوق المدينة مثلا ، أسرع أحدهم بالذهاب لإحضارها .

وعند محطة السكة الحديد يصطفون لتلقى المدعوين القادمين

من بعيد ، وينقلونهم إلى منزل أصحاب الفرح ، مكرمين معززين .

فإذا أقبل العصر ، بدأت الأفراح .

الموسيقى والطبول ، تدور فى طرقات القرية المتعرجة ، وتستوقفها البيوت لبعض ألوان النقوط .

فإذا ما اصطحبت «الغزية» هذه الموسيقى وهذه الطبول، كان النصيب أوفر من النقوط ، وكان الرجال أكثر شغفا بالزفة من النساء .

ويقصد أهل القرية الفرح للعشاء ، ثم تكون زفة العريس، ثم تبدأ مراسم الاحتفال بالزفاف ، وتسمع القرية غناء لاتسمعه إلا بين الحين والحين ، وتشهد القرية رقصا لا تشهده إلا كلما كان زفاف .

وقد لا تنام القرية حتى الفجر ، أو الصباح .

ثم تكون الصباحية ليتوجه أهل القرية آحادا أو جماعات إلى العريس وإلى العروس ، ليشربوا عندهما شيئاً حلواً ، ويدفعوا لهما «النقوط» .

ويكون على العريس وعلى العروس ، أن يرتب كل منهما نفسه لنوع من الهدايا البسيطة يرد بها على النقوط .

وهو يذكر أن نصيبه كان طاقية مزركشة بألوان زاهية ،

احتفظ بها زمنا طويلا ، ليذكر كلما رآها ، أو لبسها ، كيف علمه الفرح الأول من أفراح قريته سرا من أعز أسرار بلدنا إلى قلبه ، لأنه يفسر له اشتراكية بلدنا ، كأجمل ما يكون التفسير الإنسانى للاشتراكية ، وللعدالة الاجتماعية ، وللتعاون ، وللديموقراطية .

لأى مفهوم من هذه المفهومات التى يصبونها اليوم فى قوالب ومركبات ، تفقدها ما يكسوها من بهجة ، وما تتضمنه من فهم لكرامة الإنسان .

* * *

على أن بلدنا لا تكاد تفيق مما كان قد أصابها من محنة بموت أبيه .

وما تكاد تتجه نحو الحياة الجديدة البهجة المشرقة الوضاءة حتى يباغتها القدر بمصاب جديد .

وكان هذا المصاب الجديد عنصرا جديدا ، دخل حياته ، ليضاعف من حصيلتها فى الوقوف على اشتراكية تقدير المسئولية فى بلدنا .

المصاب الأول كان مصابه هو ، فلم يتمكن عن طريقه من الوقوف على هذه الاشتراكية ، لصغر سنه أولا ؛ ولأنها كانت

التجربة الأولى فى حياته ثانياً ، ولأن الفاجعة كانت شديدة البطش به على كل حال .

وصحيح أنه أحس نوعا من الاشتراكية يمثل جانبها المعنوى . أحس اشتراكية الوجدان ، ولعله يؤمن حتى اليوم أنها أساس كل اشتراكية ، لأنها هى التى تولد الحافز لأية اشتراكية مادية أو عملية .

ولكنه لم يحس فى غمرة أحزانه هو أن المصاب ، فى بلدنا ، يعتبر مصاب البلد كلها ، وعلى كل قادر فيها أن يتحمل نصيبه فيه . فلما كان مصاب جديد ، عرف هذه الحقيقة ، ووقف على كثير من تفصيلاتها .

لقد أيقظته أمه فى الصباح الباكر ، لتروى له قصة المصاب، وتدعوه إلى أن يذهب على الفور ليعزى أهل المصاب ، وألا يغادرهم أبداً ، إلا إذا اضطرته إلى ذلك حاجة ملحة .

وقالت له إنها سترسل ابن عمه إلى المدينة ليشترى ما سترسله الأسرة لأهل المصاب من البن والأرز ، بحيث يكون عندهم قبل منتصف النهار .

واوصته أن يكون رجلا ، فلا يضايقه طول وقت العزاء ، وأن يمشى فى الجنازة ، فلا يخجل لأنه صغير ، وأن يجلس مع المعزين

يستمع إلى القرآن ، فلا ينهكه التعب فينام مثلا ، ولا يجلس جلسة غير لا ئقة .

وفى اختصار هو رجل البيت ، وعليه أن يتحمل هذه المسئولية ، فلا يجعل أحداً ينتقد تصرفاً من تصرفاته .

وذهب إلى هناك ، وكاد يبكى عندما سمع عويل النساء ونحيب الأطفال ، فقد ذكر على التو أباه .

ولكنه الآن ممثل البيت ، ورجله ، وعليه أن يتصرف تصرف الرجال .

وحبس دموعه فى عينيه كارهاً غير مرتاح .

وعرف كيف يسير وراء النعش مع المعزين ، وهو فى العاشرة من عمره .

وعرف كيف يعود ليجلس فى الدوار مع المعزين ، يستمع إلى القرآن ، وتدور عليه القهوة فيكون عليه أن يردها ، لا لأنه لم يذقها من قبل ، وإنما لأن هذه هى أصول العزاء .

وكم اختلس النظر إلى جيرانه من الكبار ، ليرى كيف يجلسون ، وكيف يتصرفون .

هل يضع ساقاً على ساق مثلا ، والقرآن يتلى ، أم أن هذا حرام ؟ .

كيف يرد القهوة إذا تقدم بها الساقى ؟ .

يقول : لا . . . أشكرك . . . مثلا ؟ .

ولكن الآخرين يكتفون بوضع أيديهم على صدورهم دون كلام ، فيفهم الساقى أنهم يعتذرون ، ويمضى بما يحمل من أقداح لا يمسها أحد .

ولكم غالب خدر ساقيه من طول الجلوس ! .

ولكم غالب الرغبة فى النوم من طول ساعات العزاء ! .

ونسى أن أمه قالت له إنه يستطيع أن يغادر مكان العزاء ، إذا اضطرته إلى ذلك حاجة .

* * *

وجاء وقت الغداء .

وفوجىء بشىء لم يكن قد عرفه من قبل .

رجال يدخلون الدوار يحملون الصوانى النحاس المستديرة الكبيرة ، وعليها أصناف شتى من الطعام .

ويتوجه كل رجل إلى مكان ، يضع ما يحمله فيه .

لم يفهم أول الأمر ، وظن لأول وهلة أن أهل الميت قد اعدوا العدة لغداء المعزين .

ولكنه وجد الرجال يفرقون ما يحملون ، ويضعونه أمام أناس بأعينهم .

ثم فوجئ بواحد من الرجال ، من ذوى قرابته يحمل واحدة من هذه الصوانى ، ويضعها أمامه هو .

وعجب أول الأمر ، ثم نظر إلى ما تحويه من أصناف الطعام ، فكاد يشم رائحة أمه فيما تحمل ، كاد يرى آثار أصابعها فى أصناف الطعام .

كاد يشعر بطعم هذه الأصناف قبل أن يذوقها ، بل رأى أطباق المنزل التى طالما أكل فيها ألوانا شتى من الطعام .

وظل صامتاً لا يفتح فمه بكلمة .

إن أحداً لم يخبره بهذا من قبل ، وأنه ليحس أنه سيرتبك من غير شك أمام هذه المفاجأة التى لم يكن يتوقع حدوثها أبدا .

لقد كان يفكر منذ لحظة فى أن يدخل فى باب الضرورات الملحة حاجته إلى الطعام ، بعد أن قرصه الجوع ، وكان على وشك أن يخرج إلى أمه ليأكل ويحكى لها كيف عمل بنصائحها جميعا .

وكانت مشكلته هى كيف يخرج ، وهو صغير قصير ، فإنه سيثير انتباه الناس .

وإذا الأكل يصله حيث هو ، وكأنما أمنياته دائماً تستجاب .

ولماذا تستجاب هذه الأمنية ، وله أمنيات أخرى أعز ، لم تجد بعد طريقها إلى باب السماء ؟ .

على أن قريبه الذى حمل إليه الطعام أدرك ارتباكه ، فتولى عنه الأمر ، ومضى يدعو غرباء من المعزين إلى مائدته .

وتجمع حوله رجال لم يرهم من قبل ، كبار أشداء ، عرف فيما بعد أنهم قدموا للعزاء من بلد بعيد ، وأنهم يعرفون الفقيد ، فقد شاركهم مرة فى زراعة أحد المحاصيل ، وكان ذلك منذ عشر سنوات ! وأنهم كانوا يعرفون أباه ، وأنهم قدموا للعزاء فيه ، وحزنوا عليه أشد الحزن .

وهمس قريبه فى أذنه ، ليتولى دعوتهم وإطعامهم وإكرامهم ، فهم ضيوف البلد ، فى مناسبة عزاء ، وعلى البلد كلها أن تشترك فى توفير حاجاتهم .

وكاد يبكى من غرابة ما يطلبه منه هذا القريب .

ولم يقل شيئاً .

وبدأوا يأكلون معه ، على مائدته ، وحاول أن يجد كلاما يقوله لهم ، فجف فى حلقه الكلام ، فأخذوا هم يتكلمون ، حتى عرفوا من هو ، ومن أبوه ، وهزوا رءوسهم إشفاقاً عليه من أن يكون هو الذى يتحمل هذه المسئوليات عن أسرته ، وهو بعد صبى صغير .

ولما فرغوا من الطعام ، عاد الناس يجلسون حيث كانوا ، يستمعون إلى آيات الذكر الحكيم ، ويمر بينهم بين حين وحين ، أحد أهل الميت ، يشكر المعزين ، أو يوزع السجائر بين فترات قراءة القرآن ، أو يدور الساقى بفناجين القهوة ، فلا تمسها يد ، تدليلا على المشاركة فى الأحزان .

وما حدث فى طعام الغداء ، حدث لطعام العشاء .

ومر بالتجربة نفسها ، وإن تكن تجربة الغداء ، قد هيئته لانتظار تجربة العشاء . على أنه لم يغادر مكان العزاء أبداً ، من شدة ما كان يخاف أن يصيبه من خجل او ارتباك قد يدفعه للصياح أو البكاء .

وما إن انتهت هذه الليلة من ليالى العزاء ، حتى أقبل قريبه الذى حمل إليه الطعام وهمس فى أذنه أن يدعو خمسة أو ستة من المعزين الغرباء ليبيتوا عنده فى الدار .

وسأله عن السبب ، فشد على يده حتى لا يسأل عن شىء ، ومضى .

وكاد هذه المرة يبكى .

إن هذا فوق ما يطيق .

على أنه وجد رؤساء الأسر الأخرى يتقدمون إلى هؤلاء الغرباء يدعونهم للمبيت فى دورهم ولم يبق إلا هو الذى ظل

بمكانه ، يخاف إذا قام أن يتخطفه الناس .

وإذا قريبه يقوم عنه بدعوة عدد من هؤلاء الغرباء ، فيقبلون شاكرين ، ويشده من يده فيقوم بدوره ، ويصاحب الغرباء إلى الدار .

وما إن يدخلوا ، حتى يتركهم لقريبه ، ويسرع إلى داخل الدار .

كان فى حاجة إلى أمه .

كان يريد أن يبكى بكاء مرا .

لقد تحمل ما هو فوق طاقته ، وتجمعت فى نفسه آلام ، كان يحس أن الدموع وحدها هى القادرة على أن تغسلها وتطهرها .

ولكنه وجد أمه تنتظره بدموع ، فيها هذه المرة مسحة من الراحة والهدوء .

وخفت آلامه فجأة ، بل ربما تبددت جميعا .

وحينما قبلته أمه ، سمعها تتمتم بالدعاء له ، أن يصونه الله ، من عين أى حسود .

وقالت له إنها أحست اليوم فقط أن أباه لم يمت .

* * *

ولم ينم ليلتها إلا قليلا ، فإنه أخذ يستعرض أحداث يومه ،

وما قام به من أعباء ، والمعانى الكبيرة التى يقف عليها كلما سنحت فرصة ، عن حياة بلدنا ، وعن اشتراكية بلدنا .

إن بلدنا فى المحنة ، هى بلدنا فى النعيم .

تؤمن بأن الأمر أمرها هى ، لا أمر واحد من آحادها . أمر كل فرد فيها ، يشارك فيه بقدر ما يستطيع .

تؤمن باشتراكية الوجدان ، واشتراكية الضمير ، واشتراكية المحنة واشتراكية النعمة جميعا .

وهى لا تكتفى بمجرد الإيمان بهذه المبادىء ، ولكنها تنفذ ذلك بالفعل ، منذ خلقها الله ، وسواها بلدا طيبا رائعا جميلا .

وهى لا تحتاج إلى قواعد وتركيبات وإطارات ، حتى تعرف هذه الاشتراكية وحتى تمارسها ، فهى شىء يمتد إلى جذورها الأولى ، ويعكس طبيعة أهلها السذج الطيبين .

* * *

ولعله قد خيل إليه ، أن والده راض عنه ، فقد كان والده يقدس مسئولياته نحو أسرته ونحو أقاربه ، ونحو الناس ، فإذا وجده اليوم ، يتحمل ما تحمل ، فلا شك أن ذلك شىء يرضيه .

على أن شيئا واحدا كان يزعجه ويرضيه فى آن .

لقد كان أصغر الذين ساروا فى الجنازة ، وكان كذلك أصغر المعزين .

كان يزعجه أن يستعيد خجله حينما عجز عن الخروج من مكان العزاء ؛ خوفا من أن يثير انتباه الناس ، ومن يدرى ربما كان قد أثار سخريتهم كذلك .

ولكن كان يرضيه أنه استطاع برغم سنه الصغيرة ، وقامته القصيرة ، أن يملأ فراغ أبيه وأن يقنع أمه بأنه رجل ، فيستريح بالها القلق ، وتطمئن نفسها الحزينة ، ويهدأ قلبها الجريح .

* * *

فلما أصبح الصباح ، لم يجد مشقة فى الدخول على ضيوفه ، وتوفير ما يحتاجون إليه وتقديم طعام الفطور إليهم ، ثم اصطحبهم إلى مكان العزاء ، حيث قضى يوما ثانيا أكثر قدرة على مواجهة مسئولياته ، وأكثر قدرة على التعامل مع الناس .

وكان يومه الثالث أحسن حالا من يوميه الماضيين ، فلما انتهى كان شديد الرغبة فى خلوة طويلة يقضيها بين الحقول والمزارع ، حيث تدور أحاديث نفسه بما يهوى .

يحدث أباه إذا أراد ، ويتحدث إلى نفسه إذا أحب ، ويصمت عن الحديث إذا شاء .

(٤)

على أن فى بلدنا مظاهر أخرى عديدة لهذه الاشتراكية . ولقد شهد قصة لا يستطيع أن ينساها مدى الحياة.. قصة من قصص هذه الاشتراكية .

وكان بطل هذه القصة هو : النيل .

هذا النهر الخالد الوادع ، الذى يجلب الخير والبركة ، ولكنه فى أحيان أخرى كان يجلب الخطر ، والخوف ، من مستقبل غامض مجهول .

هذا النهر الذى طالما كان مسرحا للخيال الشعبى ، فألهم هذا الخيال الناس بكثير من القصص والحكايات ، والخرافات ، وملأ خيال الشعب على مدى العصور بحكايات الحوريات والجنيات ، والحياة المملوءة بالأسرار والألغاز .

هذا النهر الذى طالما كانوا يسترضونه باحتفالات شعبية ترسبت فى حياة الشعب كما ترسبت التقاليد القديمة العريقة ، ورددوا عنه أنه لا يرضى إلا إذا قدموا له عروسا كل عام ، ليفى بوعده ، ويقبل برغده ، ويحمل معه الخير مع ما يحمل من

ماء يحيي به كل شىء حى ؛ أو تكون له غضبة ، والويل منه إذا غضب ، يكون جفاف ، وتكون حاجة إلى الرى ، ويكون شعور بخطر المجاعة فى كل وقت وحين ، ويخرج الناس إلى الخلاء وحول شواطىء النهر الخالد يدعون ويبتهلون ، ويطلبون من الله الرحمة ، ومن النهر الوفاء .

ونقرأ فى تاريخ الجبرتى ، كيف كان الناس فى القاهرة يخرجون إلى أقرب مكان يسمع الله فيه الدعوات ، لتصل دعواتهم إليه من هذا المكان القريب إلى رحمته ، ويحدد الجبرتى جبل الجيوشى مكانا اعتاد الناس أن يصعدوا إليه ليدعوا الله أن يشملهم برحمته ، ويحقق لهم ما شاء أن يحققه لهم كل عام ، من وفاء النهر الخالد .

بل إن الاحتفال بوفاء النيل ، كان ضرورة من الضرورات القومية ، لا يتخلف عنه واحد ، حتى لقد كان الحكام العثمانيون والمعتدون الفرنسيون ثم الإنجليز ، يتملقون شعور الجماعة بالمشاركة فى هذا الاحتفال .

ولم تكن الجماعة من السذاجة والبلاهة ، بحيث لا تدرك السر فى مشاركة المعتدين لهم فى هذا الاحتفال ، وكانوا يقابلون ذلك بالسخط فى كثير من الأحيان .

على أى حال ، هذا شىء آخر .

وأهم من هذا الآن ، قصة النهر ، وهى القصة التى تعكس اشتراكية بلدنا الأصيلة ، وكان النيل بطلها الأول .

لقد شهد فى قريته آخر أيام السخرة ، وكانت هذه السخرة تقوم على أن يشارك كل بيت من بيوت القرية بواحد من أبنائها فى البقاء على جسور النيل طيلة أيام الفيضان وقد تطول ثلاثة أشهر ، بلا مقابل .

وكانوا يأخذون هؤلاء الشبان بالقوة ، وكانت بيوت القرية تعتبر هذا عملا من أعمال القسر ، ولهذا سموه السخرة .

ولقد كان يوم جمع هؤلاء الشبان يعتبر من أتعس أيام القرية ، ترتفع فيه أصوات النساء بالبكاء ، وتحاول كثير من البيوت أن تهرب الأعزاء من أبنائها إلى المدينة ، لتفوت فرصة اقتناصهم على السلطات .

وكان العمدة مكلفا بأن يقدم من كل بيت شخصا ، ليؤدى هذه المهمة العامة وليقوم بهذا الواجب .

وكان يعانى فى سبيل ذلك الكثير . يلجأ للرجاء ، فإن عز الرجاء ، فإنه يستحلف البيوت ألا تخذله أمام السلطات ،

فإذا لم يجد ذلك ، أصبح عليه أن يجمع الخفر ، وينفذ الأمر بقوة السلاح .

وتزود الأسر أبناءها بالزاد ، تعطيهم خبزا كافيا وجبنا ، إلى جوار الشاى والسكر .

وتكلف من يعرف مكان حراستهم ، وكثيرا ماتكون بعيدة عن حدود القرية ، لتزودهم بين الحين والحين ، بما يحتاجون إليه من طعام وكساء وغطاء .

* * *

لم يكن يعرف شيئاً عن هذه السخرة من قبل ، فلما بدت له مقدماتها ، كرهها كما كرهها الناس .

ولم يدر بخلده ، ولو عن طريق الخيال ، أن هذه السخرة يمكن أن تنطبق عليه ، لأنه تلميذ من تلاميذ المدارس ، وليست له علاقة بأعمال الفلاحة ، ولا بالحراسة ، ولا بمراقبة شواطىء النيل ، إذا زاد ، وأنذر بالخطر .

على أنه فوجىء كما فوجىء الناس ، بشيخ الخفراء يقف أمام بيتهم الصغير ، ويطالب بواحد من الأسرة .

وذهل الناس .

من يطلب ؟وأكبر أبناء الأسرة هنا تجاوز العاشرة بقليل ،

وليس معه هنا إلا أمه وإلا أخوه الطفل ، فمن إذن يمكن ان يؤدى هذه المهمة للسلطات ؟

ولكن شيخ الخفراء أصر على أن يخرج إلى جسور النيل واحد من هذا البيت ، طالما أن البيت مدرج فى السجلات ! !

وعجب الناس وتجمعوا أمام البيت .

وبدأ هو يحس أن هناك خطرا يهدده هو هذه المرة ، فقد تصر السلطة على أن تأخذه ، لينام شهورا على جسور النيل ، وقد يحتاج الأمر إلى أن يحمل على كتفه التراب طول النهار ، وربما طول الليل ، لتقوية هذه الجسور .

هل يقوى على مثل هذا ؟ وهل يقدر ؟

وهل ترضى أمه بهذا ؟ وهل تطيق ؟

ولمن يتركها هذه المسكينة التعسة . . . لمن ؟

ولم يدر شيئاً ، ولم يعرف ماذا يقول !

ولكنه كان قوى الثقة فى شعور الجماعة ، وفى تقديرها ، وفى أن وجدانها أعمق من أن يسمح بهذا العبث ، وضميرها أقوى من أن يترك هذه التصرفات ، وإرادتها عند اللزوم سلاح بتار ، يقف مثل هذا التصرف الأحمق المجنون .

ودارت عيناه فى الواقفين ، لعله يجد بينهم قريبا أو صهرا .

على أنه لم يكن محتاجا لا إلى قريب أو صهر ، فإن هذه الجماعة كلها أقارب وأصهار ،حتى لو لم تقم بينهم قرابةأو نسب .

لم يدر كيف حدث هذا ؟

لقد تقدم واحد لا يعرف إلا شكله ، وقال لشيخ الخفراء ها أنذا عن هذا البيت ياسيدى .

وأخذه شيخ الخفراء راضيا بهذا الحل .

وتأثر الفتى لهذه الشهامة ممن لاتربطه به صلة من دم أو نسب.

وما هى إلا ساعة ، حتى تردد فى البلدة الصغيرة أن العمدة لما علم بالقصة ، أطلق سراح الشاب المتطوع ، وأعفى الأسرة من السخرة ، فما كان منه إلا أن ذهب إلى هذا الشاب الشهم يشكر له صنيعه ، كما ذهبت أمه تشكر والدته ، وأصبح من يومها أحب الناس إلى قلبه ، وأقربهم إليه .

ولئن كان قد خرج من هذه التجربة بشىء ، فقد كره السخرة كراهية شديدة ، كما كرهتها بلدنا كلها ، وعاشت تترقبها كل عام ، بكل ما تملكه من سخط .

* * *

على أنه قد أخذ يفكر فى هذه السخرة ، ولماذا سموها سخرة ، ولماذا تقابل بهذا السخط ، وهذه الكراهية ؟

ولم يكن يستطيع ان يجد الجواب الشافى عما دار فى نفسه من أسئلة .

ولكن فكرة السخرة لاحقته بعد ذلك ليجد التعليل لكراهية بلدنا لها .

وكان يعجب لما يتبين من تناقض .

فبينما النيل يحظى بكل هذه المكانة ، وبكل هذه المنزلة ، فإن العمل فى درء خطره كان فى نظر الناس سخرة تقابل بما تقابل به السخرة من سخط . .

وزاد شعوره بهذا التناقض غداة حوادث جمع الشبان سخرة، للعمل على جسور النيل .

* * *

كانت لبلدهم جزيرة على النيل، أو هكذا اعتادوا أن يسموها، وهى هذه المساحات من الأرض التى تكونها رواسب الطمى عاما بعد عام ، بين جسور النيل ومياه النيل .

وتصبح هذه الأرض مع تعاقب الأجيال ، أرضا زراعية خصبة لا نظير لها فى زمام القرية .

على أنها تصبح دائماً مهددة بالغرق أيام الفيضان .

وجزيرة بلدنا جميلة جدا ، وواسعة ، وزاخرة بأطيب انواع الزراعات والفواكه .

وبعض عائلات بلدنا لا تملك أرضا إلا فيها ، ولهذا تدافع عنها دفاع المستميت إذا تعرضت لخطر الفيضان ، أو أنذرها الفيضان العالى بهذا الخطر .

والبعض الآخر من العائلات ، له أرض فى زمام البلد ، وأرض فى الجزيرة .

وبعض ثالث لا يملك فى الجزيرة أرضا على الإطلاق .

ولكنها أرض بلدنا على أى حال ، سواء بالنسبة لمن له فيها أرض ، ولمن ليس له فيها قيراط .

تماما كفرح بلدنا ، وكمصاب بلدنا ! .

ثم إن الجزيرة لا تمتد بامتداد جسور النيل كلها ، فبعض هذه الجسور ينحدر إلى الماء مباشرة بلا أرض تفصل فيما بينه وبين الماء ، وهنا يصبح الخطر مخيفا ؛ لأن الماء إذا ارتفع وهدد الجسر الأصلى ، وقطع بعض أجزائه ، فهو إذن الطوفان حيث تغرق القرى والبيوت ، ويتشرد الأطفال والنساء .

ففى المناطق التى تتكون فيها مايسمى جزرا ، تكمن الحاجة ، ويرتبط بها الناس دفاعا عن الرزق ، ولقمة العيش والمحصول ..

دفاعا عن عرق العام ، وجهد العام ، والتعب والضنى ، والأمل في ستر من عند الله .

وفى المناطق التى لاتتكون فيها هذه الجزر ، تكمن الحاجة أيضا، ويرتبط بها الناس دفاعا عن البيوت ، ومن فى البيوت من نساء وعيال ومافى البيوت من طعام وشراب وستر للحرمات .

هى إذن مصلحة عامة ، لكل فرد من أفراد بلدنا نصيب فيها . وهو إذن واجب عام ، على كل فرد من أفراد بلدنا أن يؤدى جزءا منه .

. . والنيل نفسه ، أليس مرفقاً عاماً لحياة البلاد ، يعتبر حراسة جسوره عملا من أعمال المحافظة عليه ، ليظل أبدا يجرى فى الوادى الخصيب ، حاملا ما يحمله للناس من الخير والبركة . فإذا أغفل أو أهمل ، ألا تتبدد مياهه ، فلا يدرى أحد كيف يستقر مجراه ، ولا أين ؟ !

ومع هذا ، فإن الناس يسمون حراسة جسور النيل سخرة ، ويكرهون هذه السخرة كراهية شديدة جداً .

على أن هذه السخرة شىء ، وشعور الناس بما عليهم من واجب نحو نيلهم ، شىء آخر .

* * *

لقد كانت بلدنا كلها تتناوب حراسة جسور النيل ، وتعمل كلها لتقوية هذه الجسور سواء منها الجسور الأصلية التى تحمى الدور والناس ، أو الجسور الصغيرة التى تحمى أرض الجزيرة .

وكان العمدة يمر ، وكان الأعيان يمرون ، وكان شباب القرية لا يهدأ لهم بال ، لا بالليل ولا بالنهار ، يدفعون خطر الفيضان عن الزرع وبيوت القرى .

وكان الفيضان عالياً عامها ، مما ضاعف من مسئوليات الناس ، نحو أرزاقهم وبيوتهم .

واشترك هو ، مع من اشترك من الصبيان فى عمليات التقوية والحراسة والسهر . .

بل لقد رأى نساء القرية يخرجن ليلا يساعدن فى هذه العمليات.

وكان يظن أن أمه ستغضب منه ؛ لأنه ــ وهو تلميذ ــ يقوم بهذه الأعمال ، ولكنه أحس أنها تشجعه ، وتبارك شعوره بضرورة العمل من أجل بلدنا ، حتى لو لم تكن لنا فيها مصلحة مباشرة .

إننا جميعاً نعيش من خيرها ، وعلينا جميعاً أن ندفع عنها الخطر .

* * *

وكانت ليلة ليلاء كما يقولون .

نام مبكراً على خلاف عادته ، فقد نهكه تعب اليوم ، والجهد المحدود الذى بذله مع أهل بلدنا فى حماية جسور النيل .

ولكنه أحس فيما يحس النائم ، أن صوتاً كالصفير ينادى الناس .

وظنه حلماً أو كابوساً ، فعاد يحاول أن ينام .

وإذا الصوت يتصل ، وإذا الصفير يزداد ، وإذا بصوت مختلط يصاحب الصفير ، هو صوت كالصياح والتنادى بالنجدة .

وإذا صوت أمه الذى يعرفه جيداً يرتفع مع أصوات جاراتها ، بأن الجسر قد قطع .

وهب من نومه مذعوراً ، فقد عاش أسابيع بلا حديث إلا عن النيل ، وكيف ارتفع منذ يومين قيراطا ، وكيف نجحت القرية فى تعلية هذا القيراط قبل أن تفاجأ بالارتفاع ، وكيف عادت المياه فانخفضت ، وكيف أن فلاناً يقترح أن يقطع الفلاحون أعواد القطن قبل أن يتفتح وينشروه فى الشمس فى مكان متسع ، لتتفتح اللوزات ، قبل أن يغرقها الفيضان .

قد يدهمنا الخطر فى أية لحظة ، ونعجز عن إنقاذ المحصول .

وإن قريتنا لتحرص على قراءة الصحف ، ترسل فى سبيل

الحصول عليها واحدا كل صباح إلى المدينة ليعود بها ، وبما تحويه من أنباء الفيضان .

والذين يعودون من القاهرة أو من العواصم الكبرى ، يواجهون دائماً بسؤال أهل بلدنا لهم : ألم يسمعوا شيئاً عن النيل ؟ هل انقطعت بعض الجسور فى المدن ؟ وهل حدثت خسائر ؟ وماذا تكون ؟

ولهذا لم يكن غريباً أن يهب مذعوراً ، وقد ارتبط هذه الأسابيع من حياته بالنيل ارتباطاً شديداً ، وتعلق بتطوراته وأحواله تعلقاً عاطفياً وعقلياً وماديا كذلك .

وعندما أراد أن يخرج ليشارك الناس فيما هم فيه ، أحس أن يداً قد امتدت إليه لم يتبينها فى الضوء الخافت ، وأن هذه اليد قد ناولته مقطفاً وفأساً ، حتى لا يذهب مجرداً من أى سلاح ، فى معركة تحتاج إلى مختلف أنواع السلاح .

ونظر فى النساء الواقفات يبحث عن أمه ، فرآها تنظر إليه فيما يشبه التشجيع .

وخرج يعدو ، ولم يحس إلا أنه واحد فى طابور طويل ، كله يعدو ويتسابق حيث شاع أن الجسر انقطع .

وسمع فيما سمع وهو يعدو ، أنه ربما كان الجسر الكبير هو

الذى انهار ، وإذن فنحن معرضون للطوفان ، وما أعمق ماتردد من دعوات لله بأن يلطف بعبيده المساكين .

وسمع آخرين يؤكدون أنه جسر الجزيرة ، وكان لكثيرين من أقربائه وأنسبائه زراعات فيها ، فاستعاد صورهم فى مخيلته ، وتصور أنهم قد يتعرضون لسنة قاسية .

ولكنه كان مطمئناً إلى أن بلدنا ستعرف كيف تقيل عثرتهم فيما لو أصيبوا بسوء .

ألم يسمع عن رواة القرية ، قصصاً وحوادث ، عن كثيرين فقدوا ثرواتهم ، فلم يشعروا بشىء من الحاجة ، ولم يتركهم أهل القرية يكابدون الفاقة أو المسغبة ، وإنما درأوا عنهم الجوع والحرمان ، بما قدموه من أرزاقهم ، وما ساهموا به من محصولاتهم .

ألم يسمع من أمه ، أن ذلك كله كان يتم سراً ، وبلا إعلان ، فالذين يتقدمون بالمساعدة ، يسيئهم أن يعرف الناس عنهم فضلا أو يذكروا لهم حسنة ، فإن ذلك يشوه وجه الفضل ، ويسىء إلى المحسن عند الله وعند الناس .

وبينما هو غارق فى أفكاره ، وصل إلى حيث احتشدت جموع الناس .

ورأى مظهرا ظل يعيش عليه شهورا ، ثم ظل يذكره بين الحين والحين ، كلما ذكرت بلدنا أمامه ، بخير ... أو سوء !

فإن ذكرت بخير ، فهذا مظهر رائع من مظاهر خيرها .

وإن ذكرت بسوء ، فما أكذب الذين يحاولون أن يشوهوا وجهها ، بعد ما رأى بعينيه ، كيف تعيش بلدنا ، يهز الأسى وجدانها ، فلا تعود تفكر إلا فى طريق تتخلص به من هذا الأسى .

والأسى فى بلدنا ككل شىء ، أسى بلدنا كلها .

كذلك الخطر ، كذلك الخوف ، كذلك الهلع .

هناك رأى ناساً كثيرين ، عرفوا كيف ينظمون صفوفهم ، وكيف يوزعون جهودهم ، وكيف يتقاسمون المسئوليات .

بلا ترتيب ولا خطة ، وإنما بقيادة واحدة موحدة ، فرضتها طبائع الأشياء .

وآلت القيادة ، لا إلى الأكبر سناً ، فلم يكن هذا أوان حكمة السن ، وتجربة الأيام ، ولا إلى الأكثر جاهاً ، فلم يكن هذا أوان انتخابات لمنصب العمدة ، ولا إلى الأغنى ، فلم يكن هذا أوان الحاجة إلى الأغنياء .

وإنما آلت قيادة هذا الجمع إلى أكثر الشباب شجاعة وصلابة ومقدرة على تنظيم الصفوف .

آلت إلى الذى رآه هو بعينيه يقتحم الخطر ؛ ليرد عن الأرض الطيبة هذا الخطر .

آلت إلى الذى شاهده بنفسه ، يمزق ملابسه بيديه فى سرعة وجنون ، ليشد بها أعواداً من الذرة أو حطب القطن ، ويلقى بها حيث كسر جسر الجزيرة الخصبة الجميلة .

آلت إلى الذى أذهله بما فعله أخيراً عندما عزت عليه الحيلة ، فرمى بجسده فى المكان الذى كسر عنده الجسر ، وأمر مرافقيه أن يضعوا حول جسمه التراب ، وأن يكملوا السد المطلوب فوق جسمه الذى حال به جزءاً كبيراً من اندفاع التيار .

ولم يترددوا . لم يعصوا له أمراً . لقد كان قائدهم فى معركة الخطر .

وألقوا عليه التراب ، حتى نجح فى كسر حدة التيار ، ثم نجح فى تقوية السد الذى أقيم ، بنفسه ، وبجسمه ، وكان يمكن أن يختنق ويموت ، أو تغمره المياه فيفقد حياته تحت المياه .

ولولا عناية الله ، وحرص زملائه لذهب القائد ، شهيداً من

شهداء المعركة الرهيبة ، وضحية من ضحايا الصراع ضد خطر الفيضان .

ولقد ظل ساعات ، حتى طلع الصباح ، وهو حيث هو من السد ، حتى تمكن أهل بلدنا من إقامة سد جديد خلف السد الذى كونه بجسده ، فرفعوا عنه الطين ، وأخرجوه مجهدا منهك القوى ، محطم الأعصاب .

ولكنه حقق لبلدنا معجزة ، أنقذت الزرع ، وجنبت أهل بلدنا الحاجة والفقر والعوز .

* * *

وكان عملا من أعمال البطولة جعلته ينظر إليه دائماً فى إعجاب وإكبار ، ويذكر تلك الليلة الليلاء ، والعمل الرائع الذى أداه فى قيادة المعركة إلى النصر .

كان حاسماً وسريعاً فى توزيع قوى أبناء البلد .

النسوة يحملن المشاعل ، ليضئن الطريق للرجال .

والرجال يوزعون : خمسون هناك يملأون المقاطف بالتراب ، وخمسون آخرون يحملونها فى طوابير منتظمة دون أدنى ارتباك إلى حيث كسر الجسر ، وخمسون غير هؤلاء يجمعون حطبا

او يقطعون بعض أعواد الذرة ، وعشرة يربطونها حزما ، وعشرة يحملونها إلى مكان الخطر .

والأطفال يذهبون إلى القرية لإحضار المشاعل لتقوية الإضاءة ، وإحضار الحبال لربط أحزمة الحطب .

وهو واقف يرمى بما يتمبلون به فى مكمن الخطر ، ويواجه بنفسه الخطر ، وعندما لم يستطع أن يدرأ هذا الخطر ، ولم يجد من وسيلة إلا أن ينام هو فى وجه التيار ، لم يتردد ، ومضى يلقى اوامره أن يقيموا السد على جسده الملقى فى وجه التيار ، ثم يقيمون سداً آخر على مهل ، بلا خطر يهدد عملهم .

وقد كان ، وأنقذت الجزيرة بما فيها من زرع ومحصولات ، وانحسرت مياه النيل بعد عدة أسابيع ، وعادت القرية تبتسم فى فخر وزهو وطمأنينة ، وراحة بال ؛ وأخذت تنتظر المحصول الذى كان مهدداً بالغرق فرحة مستبشرة ، وكان عاماً خصباً منتجا ، عم فيه الخير ، حتى شمل بلدنا كلها .

كانت ذكرياته عن هذه الليلة تقترن دائماً بالبطل المنقذ الذى قاد المعركة .

وأدرك أن القيادة ليست عملا يتم بترتيب ويحسب له الحساب ،

وإنما هى قوة خارقة يحس الناس حاجتهم إليها ، ويرون فيها صورة من إرادتهم .

* * *

على أنه عاد يسأل نفسه : لماذا إذن سميت السخرة سخرة ، ونزلت من نفوس الناس منزل السخط ، والكراهية والنفور ؟.

أليس هذا تناقضا ؟

إن أهل بلدنا يستميتون فى حراسة جسور النيل ، ويدفعون خطر الفيضان بأجسامهم . . بأرواحهم إذا لزم الأمر ، فكيف إذن يكون هذا العمل سخرة ، يكرهها الناس ؟ .

أليس الهدف واحدا ؟ .

المسألة فيما علم بعد ذلك ، ترجع إلى علاقة السلطة بالأهالى ، وكيف قامت على الغصب والسلب والنهب والاستغلال . ولو أنها مسألة نيلهم ، الذى اعتادوا أن يحتفلوا به كل عام ، وأن يرضوه فيما تروى الروايات بواحدة من أجمل فتياتهم ، لما كانوا يتخذون هذا الطريق ، ولما نظروا إلى المسألة من هذا الجانب الكريه .

ولكنها كانت مسألة السلطات الغاصبة المستبدة ، ولذا قوبلت بهذه الروح المتمردة النافرة الثائرة . وسميت سخرة ،

وأخذها الناس على أنها عمل من أعمال الظلم التى يجب أن تقاوم بكل أسلوب .

أما النيل نفسه ، فها هم أولاء يحتفلون به ليفى ، ويسهرون على جسوره حتى لا يغدر ، ويدفعون خطره عند الحاجة ، بأعز ما يملكون .

والسلطات التى فرضت نفسها فرضا . فرضها الولاة ، وفرضها المماليك ، وفرضها المعتدون فى حملة نابليون ، وفرضها الاحتلال الإنجليزى ، ثم فرضها محمد على بعد أن تولى حكم البلاد ، فكانت النكبة فيه أشد هولا من أية نكبة أخرى شهدتها بلدنا .

فلقد انتخبوه وولوه ، مؤملين فيه الخير ، فإذا هو أشد فساداً أو غدرا ممن استعاذوا به منه .

وإذا هو يملك الأرض ، برغم ما يعرفه من شدة تعلق أبناء البلاد بالأرض ، ليحتكر هو الثروة الزراعية ، كما احتكر التجارة ، وكما احتكر كل شىء آخر ؛ ليكسب كل ما يستطيع على حساب الشعب الذى منحه الثقة ، وأمّل فيه الخير .

وأراحه هذا التفسير ، فقد وضح له سر هذا التناقض ، بل إنه وضح له أنه ليس فى الأمر تناقض على الإطلاق ، فالنيل

شىء ، وعلاقة أهل البلاد بالسلطة شىء آخر .

النيل بالنسبة لأهل بلدنا هو حياتهم .

ولكن السلطة كانت بالنسبة لهم هى موتهم .

. . . ولعل هذا يفسر كذلك لماذا كان أهل بلدنا ينظرون نظرتهم هذه نفسها إلى التجنيد الإجبارى ، أو القرعة كما كان يقال .

كانت القرعة بالنسبة لهم نوعاً كريها من أنواع السخرة ، يقابلونه بالبكاء والعويل .

وكانوا يلجأون إلى كل الوسائل ، لينجو أولادهم من هذه السخرة الأخرى : القرعة .

بالرشوة إذا استطاعوا ، فإن عز عليهم اتصال بذوى نفوذ ممن يرتشون ، فلا أقل من إحداث عاهة مستديمة للولد ، حتى لا ينجح فى الكشف الطبى .

وسمع عن ناس فقأوا أعين أولادهم ، خشية القرعة .

وسمع عن ناس قطعوا أصابع أولادهم ، خوفاً من القرعة .

وسمع عن ناس يشربون مشروبات خاصة ، تجعلهم أمام الكشف الطبى مرضى بالسكر أو الزلال ، فلا يليقون للقرعة .

لسبب بسيط جداً ، هو أن أهل بلدنا السذج ، ليسوا أغبياء .

وقد يتوهم بعض الذين يتصلون بهم ، أنهم أغبياء ، في حين أن من مظاهر ذكائهم ، أنهم يتعمدون أن يتركوا هذا الأثر في نفوس الذين يتصلون بهم، في حين يفهمون هم كل شيء ، ولا يخفى عليهم شيء .

وأهل بلدنا يفهمون جيداً أن السلطة التي تسخر أبناءهم لحراسة الجسور ، لا تسخرهم للمحافظة على النيل ، ولا على القرى ، ولا على الأهالي ، ولكنها تسخرهم ، للمحافظة على الأرض التي تحتكرها ، وعلى الثروة التي تحصل عليها من غير حساب .

هذه السلطة هي نفسها التي تجند أولادهم ليدافعوا عنها ، وليحافظوا لها على قواها ، وليبنوا لها مجداً مزيفا ، لا يتصل بحاجات بلدنا من قريب أو من بعيد .

وليس في بلدنا واحد كان يرضى بأن يرسل ابنه ليبني مجداً شخصياً لمحمد على وتابعيه .

ولذا وقف أهل بلدنا من القرعة نفس الموقف الذي وقفوه من السخرة .

كلها سخرة . .

أما ما يتصل بالمجتمع ، أو بمصير البلد ، أو بالمشاعر العامة ،

فإن طبيعة بلدنا كانت تتخذ منه موقفاً زاخراً بالشجاعة والبطولة والتضحية .

والاشتراكية التي شهدناها في وجدان بلدنا ، وفي المشاركة في تحمل المسئولية ، وفي توزيع أثقال الأعباء على الناس جميعاً لتخف .

الاشتراكية التي وقفنا على كثير من مظاهرها ، في الأفراح والمآتم والمحن والتجارب .

هذه الاشتراكية لم تكن لتسمح لأحد بأن يستغلها لمصلحته أو يوجهها لنفعه الخاص ، وإلا أصبحت حينئذ نوعا من أنواع الاحتكار الذي تقاومه ، أو الاستغلال الذي تمقته .

اشتراكية بلدنا اشتراكية المجموع ، اشتراكية الناس جميعاً ، اشتراكية لبلدنا ، لا لغريب مخادع استغل طيبة قلوبنا ليسيطر على طاقاتنا ، ولا لأجنبي دخل ديارنا بقوة السلاح ، في غفلة أصحاب الدار ، ولا لوال يدير الأرض على نظام الالتزام ليحصل على أكبر قسط من الأموال ، يتقدم بها تقربا وزلفى إلى الباب العالي ، ولا لمملوك يحكم بجيش من المرتزقة الأجراء .

اشتراكية بلدنا اشتراكية تلقائية ، هدفها المصلحة العامة ، دون مساس بمصلحة الفرد .

اشتراكية بلدنا ، اشتراكية سمحة طيبة ؛ لأنها خارجة من قلوب الملايين من أبناء بلدنا وكلهم بسطاء ، وكلهم شرفاء ، وكلهم مؤمنون بالمستقبل وبالحياة .

اشتراكية بلدنا تقوم على تقيم العمل من حيث هو عمل يحقق الخير والنفع للناس ، لا على أساس مايدره هذا العمل من كسب ، أو يوفره من دخل ، أو يعود منه من مصلحة خاصة محدودة .

وفى مجتمع بلدنا تسرى فى معتقدات الناس صور عن الحياة الآخرة ، وعن الجزاء وعن العقاب وعن الجنة وعن النار ، فتدفع هذه المعتقدات الناس إلى أن ينشدوا رضاء الله والناس ، بلا بخل ولا إسراف .

هى اشتراكية الوسط ، بكل ما يحمل هذا الوسط من معنى ، وبكل ما يكون له من مدلول .

ومن هنا لم تعرف بلدنا عصبيةولا تعصبا ، ولم تعرف حرب الطبقات ، ولا صراع المصالح ، إلا عندما بدأت عناصر غريبة تدخل مجتمع بلدنا ، لتشيع فيه شيئاً لم يألفه ، وتثير فيه فتنا لم يعرفها، وتؤلب فيه نوازع ليست هى نوازعه الأصيلة العميقة المتوارثة.

* * *

والذين عاشوا أعمارهم يدرسون ويبحثون عن تعريفات مركبة لهذه الاشتراكية .

الذين سخّروا كل قواهم العقلية والمادية لدراسة المبادىء والوسائل والغايات .

الذين تأثروا بالحياة الغربية ، وما شهدته هذه الحياة من ألوان الصراع ، فى تطورها التاريخى .

هؤلاء وأولئك جميعاً انتهوا إلى أن بلدنا تحكمها طبيعة أهلها وتقديرهم ، وذوقهم ، ومزاجهم ، وطابع إنسانى أصيل تميزوا به على مر العصور .

وإن النظريات والمبادىء التى وضعها الغرب ، جاءت من وحى الغرب ، ومن حاجته .

وماذا تكون النظريات ، وماذا تكون المبادىء ؟

ما هدفها جميعاً ؟ .

أليس هدفها الإنسان ، تحاول أن تضع المبادىء والنظريات فى خدمته ، ورفع مستوى حياته ؟ .

وأليس هدفها المجتمع ، تحاول أن تقيم فيه عدالة يطمئن إليها الناس ، ويحيون فى ظلها سعداء ؟ .

وهل أدت مبادىء الغرب ونظرياته إلى هذا أو إلى شىء من هذا ؟.

هل حققت هذه المبادىء والنظريات ما قصدت إليه من خدمة الإنسان ؟.

ألأنها مكنته من الاحتلال والاستعمار ، فكسب مستوى رفيعاً من الحياة ، وضحى فى سبيل مصلحته بحرية الملايين ، وأهدر كرامتهم ؟.

وهل تتجزأ معانى الحرية والكرامة والعدل ، فتتشكل بالمصلحة ، وتتلون بالمنافع والمغانم والأرباح ؟

ومتى يا ترى سمعنا أن شعبا غربيا ، من الشعوب التى درست هذه المبادىء والنظريات فتعمقت دراستها ، وبذلت فى سبيل تطبيقها كثيرا من التضحيات ، وكثيرين من الضحايا ؟

متى يا ترى سمعنا ، أن شعبا من هذه الشعوب قد ثار دفاعا عن حق شعب مغلوب ، أو انتصارا لشعب ثائر من أجل حريته وكرامته ، واستقلاله ، وتأمين رزقه ورزق أولاده ؟

متى سمعنا بهذا ، ومتى رأيناه ؟

فإذا ما جرح عامل من عمال المناجم فى أثناء تأديته عمله ،

هاجت الدنيا وثارت كل القوى التى تعمل لإقرار هذه المبادئ والنظريات ؛ لأن هذه المبادئ لها جنسية ، هى جنسية البلد الذى يطبقها ، والمجتمع الذى ينادى بتطبيقها .

فإذا حدث ما هو أفظع وأشد هولا لجنسية أخرى ، فإن المبادئ والنظريات تقف ولا تتحرك ! !

أما فى بلدنا فلا .

اشتراكية بلدنا هى اشتراكية الإنسان ، بصفته إنسانا .

لا يهم لونه ، لا يهم جنسه ، لا يهم دينه ، لا تهم لغته .

اشتراكية تنتصر للمظلوم ، وتنتصف للضعيف ، وتشد أزر المحتاج .

. . . ترى هل نمضى فى هذه المقارنة وهذا الاستطراد ؟

أم نعود إلى بلدنا ، نحاول أن نتبين انعكاسات حياتها على نفسية واحد من بنيها ؟

(٥)

كانت ايام الحصاد فى قريته ، من أحب أيامها إلى قلبه ، وآثرها عنده .

وكانت كذلك حبيبة إلى قلوب الناس جميعا : الرجال والنساء والأطفال .

لأن القرية تعيش طوال العام من أجل هذه المواسم ، وفى سبيلها ، حيث تنشق الطبيعة أخيرا عن خيراتها ، وعما أعدته يد الله الكريمة لأبناء القرية من الرزق .

وأبناء بلدنا يؤمنون إيمانا لا يخامره الشك ، بأن الله لا ينسى خلقه ، حتى الأشرار ، حتى اللئام ، حتى الزواحف ، حتى الجراثيم . . . . كلها خلقه ، وعليه أن يدبر لها رزقها .

وأيام الحصاد تلخص هذا الإيمان فى صورة هائلة .

على أن الاتكال على الله وإن يكن فى طبيعة أهل بلدنا إلا أنهم يؤمنون كذلك إيمانا راسخا بأن من جد وجد ، وبأن لكل مجتهد نصيبا ، بقدر نصيبه من العمل .

أو ليست هذه اشتراكية تلقائية ، تجرى فى تكوين الناس ، مجرى الدم ؟

أو ليست نداء العدل فى الطبيعة السمحة الطيبة المنصفة ؟

ولنعد حيث كنا ، من مواسم الحصاد .

الأعياد الحبيبة إلى قلبه ، العميقة الأثر فى خياله .

إنه يحبها ، وينتظرها ، ويشغف بها ، لا لأن لأسرته حصادا تنتظره ، ولا لأن لأسرته محصولا تبنى عليه آمالها فى حل ما يكون أمامها من مشكلات .

إن قطعة الأرض المحدودة التى تركها أبوه ، لا ترتب هذه الآمال ، وهى فوق هذا مؤجرة ، لأنه وإخوته جميعا تلاميذ فى المدارس ، لم يتعلموا حرفة الزراعة ، ولا قدرة لهم عليها . ولكنها روح الجماعة تدب فيه ، والبشر العام الذى تحيا فيه قريته فى مواسم الحصاد ، هو الذى يجرفه إلى هذا الإحساس ، ويربطه بأفراح الحصاد ومواسم الحصاد .

وشىء آخر جميل ولذيذ ، وهو أن هذه المواسم كانت تنمى فيه ملكة الخيال ، بما يتخللها من ألوان الفن الشعبى الزاخر بالحياة ، والمعبر عن نفوس أبناء الشعب .

ويتصل الليل بالنهار فى قرانا ، فلا تكاد ترى فيها إلا وجوها ابتلعتها الضحكات ، وإلا عيونا جلاّها بريق الأمل ،

وإلا أجساما استبد بها الطرب ، فترقص فى تعبير دقيق عن عمق الرجاء .

* * *

وتصل إلى القرية أصناف شتى من الطعام والشراب ، لا تشهدها إلا فى مواسم الحصاد .

الطعمية مثلا أو الفلافل فى تعبير آخر .

أصناف البلح الممتاز ، والجوافة ، والعنب ، والرمان .

جوز الهند ، والدوم ، ومكسرات الشام .

الحلوى بأنواعها : البقلاوة والبوغاشة والبسبوسة .

وأشياء أخرى كثيرة ، تتناثر فى طرقات القرية ، وأمام بيوت يستقدم أصحابها هذه الأصناف فى مواسم الحصاد ليبيعوها للناس بالنقود ، أو بما تنتج مواسم الحصاد من المحصولات .

وتتحول مصاطب هذه البيوت إلى منتديات ، وتوقد المواقد فتشهد القرية النور يدخل طرقاتها المتعرجة المظلمة فى هذه المواسم .

والأحاديث تجرى على مصاطب الباعة من أهل القرى ، وتدور كؤوس صغيرة يشرب فيها القرويون الشاى ، يمصونه مصا بصوت مسموع ، ينتظم أحيانا كما تنتظم نغمات الألحان !

بل ترى القرية فى مواسم الحصاد أشياء أخرى كثيرة .

قطع القماش الجوخ والكشمير والشاهى المخطط .
وقطع قماش للملابس الداخلية .
وقماش من حرير ، يأخذ بألباب النساء .
وأطواق للأطفال .

وزمامير ، وشخاشيخ ، والنحلة ، وألواح الاردواز .

بل تنصب المراجيح ، لتعمل بالليل وبالنهار ، ويستخف الطرب بشباب القرية ، فيشاركون الأطفال ، ركوب هذه المراجيح ، ويتعابشون ، ويتضاحكون .

وتنتظم خطوط التموين بين القرية ، وبين الحقول .

تخرج النسوة أسرابا ، يحملن «الفطير المشلتت» ، و «أبرمة» الأرز ، وطواجن الدجاج والحمام إلى حيث الرجال فى الحقول . ولا ينسين عدة الشاى .

وهن فى الذهاب والإياب ، يرتلن الأناشيد ، ويرددن الأغانى ، وكلها دعوات لله ونداءات للأرض ، لتخرج من باطنها ما ينتظرونه من الخير ، فيتزوج العرسان ، ويكتسى العريان ويأكل الجوعان ، وينام السهران .

* * *

ولنأخذ مثلا حصاد القمح فى مطلع الصيف أو فى أواخر أيام الربيع .

فى هـذا الموسم يعيش أهل بلدنا بين دورهم فى القرية ، وحقول القمح .

وحصاد القمح يكون عادة ليلا ، وقد يكون لذلك حكمة أسفرت عنها التجربة ، وقد لا يكون .

فإن لم يكن لذلك من حكمة ، فما أبهج الذين اهتدوا إليها ، فالليل أجمل وأرق ، وبخاصة فى هذا الوقت من العام .

ويذهب الرجال إلى حقولهم بعد صلاة العشاء ، حيث ينامون قليلا ، إن كانوا مسنين .

فإن يكونوا شبابا ، فهم يجتمعون فى حقل متوسط ، ليتبادلوا الأحاديث ، والأسمار .

وقد يمر سمار من منشدى القرية ، ليملأوا جو الليل بالأغانى والأناشيد ، ويرددوا على مسامع هذا الشباب الشهم الشجاع ، قصص البطولة المتوارثة عن أبى زيد الهلالى ، والظاهر بيبرس والزناتى خليفة .

وقد يرق اللحن ، ويطول الإنشاد ، فتبدأ أغانى الهوى والغرام ، ويتصايح شباب القرية باللوعة ، وترتفع أصواتهم بنداءات الانتظار ، وقد طال .

* * *

وقد يمر على هذه الجموع فى حقولها بائع من باعة «العجوة

أو الطعمية» ، فيحشون حلوقهم منها ، وهم مسترسلون فى الاستماع. وقد يقطعون بعض الوقت فى شرب الشاى .

وقد يتهامسون. وقد يتناجون، بلا منشد ، ولا بائع ، ولا شاى.

حتى إذا ما بدأت الساعات الأولى من السحر ، تفرقوا على حقولهم ليبدأ الحصاد فى هذه الساعات الساحرة من اليوم .

ويمسك الرجال بالمناجل ليحصدوا أعواد القمح ، فى نظام بديع بحيث يتخلف عن صفوفهم حزم متفرقة يسهل جمعها على الفتيات .

والفتيات خلفهن يجمعن هذه الحزم ، وهن يرتلن الأناشيد ويطلقن حناجرهن بالغناء .

ثم يسرن فى طوابير منتظمة ، حيث يتجمع المحصول فى كوم واحد يسهل حمله بعد ذلك على الجمال .

وتصل خطوط التموين إلى الجبهة إذا جاز لنا أن نستعير التعبير، وتكون الشمس على وشك الظهور ، فيتناول الرجال طعامهم جزاء لهم على ما قاموا به من جمع المحصول .

وتنصرف النسوة عائدات إلى دورهن ، ويستأنف الرجال العمل حتى الضحى .

ثم يعودون إلى القرية ليستريحوا .

ومنذ أن ينتهى الرجال من صلاة العصر إلى العشاء حتى يتفرقوا

على مصاطب الباعة جماعات يأكلون ويشربون ، ويشترون الملابس ، وينفقون ، وقد يعبثون ، وقد يركبون مراجيح الأطفال فى نشوة وفرح .

ثم يذهبون بعد ذلك إلى الحقول ، حتى يتم حصاد المحصول .

فإن تم الحصاد ، وانتقل إلى الأجران ، فقد بدأت حياة أخرى فى هذه الأجران .

إنهم يدرسون القمح طول النهار . يدور النورج على المحصول لدرسه ، فإن جاء الليل بات الرجال فى الأجران ، فى الخلاء ، سقفهم السماء الزرقاء ، وقد تناثرت على صفحتها نجوم الليل ، تلمع بيضاء .

* * *

على أن حصاد القمح ، وهذه مظاهره الجميلة الرقيقة ، لا تقاس بشىء أمام موسم جمع القطن .

فالقطن شىء آخر .

ألم يكن حتى وقت قريب ، عماد ثروة البلاد ؟

بل لقد أريد له أن يبقى كذلك ؛ ليظل وادى النيل مزرعة لمصانع دول الاستعمار .

على أى حال ، لقد كان موسم جمع القطن يلعب دورا رئيسيا فى حياة بلدنا .

الأفراد ينتظرونه ، كما ينتظر العطشان الماء .

والحكومة تنتظره ؛ لأنه محصول البلاد الرئيسى .

ولو أننا ضربنا مظاهر الفرح فى موسم حصاد القمح

فى عشرة ، لأمكن أن نتصور حياة بلدنا فى موسم جمع القطن ، دون مبالغة ولا إسراف .

والقطن غير القمح لا يجمع ، كما يحصد القمح ، فى ساعات السحر .

وإنما القطن يجمع بالنهار ، ويستمر جمعه حتى المساء .

وحينئذ تخلو القرية لحياة الليل ، وسمر الليل ، وأغانى الليل ، وألعاب الليل .

والقرية تنقلب إلى شعلة مضيئة من كثرة المصابيح .

وحلقات الذكر وما يتخللها من إنشاد ، تتخذ مكانها فى ساحات المساجد ، وفى بيوت خلفاء المتصوفة .

ولا تقل الحقول حياة أثناء النهار ، عن القرية فى أمسياتها الرقيقة ولياليها المرحة النشوانة .

إن أسراب الفتيات ، وهن يجمعن القطن يشكل أبدع منظر يمكن أن يرسمه فنان .

لوز القطن ، وقد نضجت وانشقت عن قطع بيضاء زاهية مشرقة ، وطابور الفتيات يزحف عليها متسابقاً يجمع القطن ، والملابس الريفيـــة الفضفاضة التى يرتدينها ، تتحول إلى قرب منفوخة ، يدسسن فيها القطن ، فيصبح منظرهن بديعا ، وحبات العرق تبلل وجوههن النضرة السمراء ، وأهازيج الفرح تتخلل أصواتهن الساذجة الناعمة ، وعصا «الخولى» يستحثهن لتنظيف

شجر القطن ، والسبق فى جمعه ، والغناء بما يعكس ما فى قلبه من المخبوء .

وعلى مسافة من مكان الجمع ، يعد مكان لتجميعه ، استعداداً لكبسه فى الزكائب ووزنه قبل التحميل ، ثم حمله إلى المخازن ، انتظاراً للمشترى ، وما يحمله المشترى فى جيبه من النقود ،ذات الفئات الكبيرة ، أو ما كان يسميه أبناء بلدنا « الورق أبو مئذنة » .

* * *

هذان موسمان من أهم مواسم الحصاد فى بلدنا .

على أن بلدنا زاخر بمواسم حصاد أخرى ، قد تختلف حسب اختلاف طبيعة كل إقليم ، وحسب اختلاف محاصيل هذه الأقاليم .

فهناك مواسم لجمع البلح .

وهناك مواسم لحصد الأرز .

وهناك مواسم لتقطيع الذرة .

وهناك مواسم أخرى كثيرة متنوعة .

وكلها مواسم بلدنا كلها ، فالخير فى بلدنا ليس خاصاً بشخص ، ولا بفرد ، ولا بجماعة ، ولكنه خير عام ، للبلد جميعاً نصيب فيه .

وهو يذكر فيما يذكر ، أن شمول هذا الخير للناس جميعاً ،

لم يكن ليتم صدفة ، ولكن كان وراءه دائماً نوع من التنظيم التلقائى ، الذى يعبر عن أعمق مافى هذه الاشتراكية من التكامل والتعاون والتكافل ، وعدالة الإنسان ، فى صلته بالإنسان .

ففى مواسم الحصاد ــ أى حصاد ــ يوزع محصول الأرض، فيكون لما بذل من جهد أكبر نصيب ، ثم يكون لرأس المال نصيبه العادل المحتوم ، إلا إذا تدخلت عوامل أخرى غريبة عن طبيعة بلدنا لتقلب الميزان .

ولقد كان يؤدى حتى قريب فى صدق وأمانة ، حتى دخلت بلدنا عناصر غريبة عنها ، فتسلل إليها الاستغلال والاحتكار والانتهازية ، ومحاولة مص دماء الأبرياء ؛ لينعم أصحاب الجاه والنفوذ والسلطان .

على أن هذا مظهر ليس أصيلا فى بلدنا على أى حال .

أما عن نصيب الجهد الذى بذل ، وهو الأكبر على الدوام ، برغم ما أشرنا إليه من إقحام العناصر الغريبة نفسها على طبيعة بلدنا وأهل بلدنا ، فلهذا شأن آخر .

إن أهل بلدنا اعتادوا على أن يتقاسموا الخدمات ، ويتقاسموا كذلك تكاليف هذه الخدمات .

لقد كانت لهم مرافقهم العامة ، فى الحدود التى فهموها وتذوقوها وعاشوا عليها ونبتت من بيئتهم ، وحرصوا عليها

وصانوها من كل المحاولات .

وكانت هذه المرافق العامة تمثل حاجاتهم فى حياتهم الساذجة البسيطة المحدودة .

المسجد ، والكتاب ، والمشيخة ، والقرافة .

الأول يمثل العقيدة ، والثانى يمثل الفكرة ، والثالث يمثل علاقاتهم الاجتماعية ، والرابع يمثل الوفاء .

كانت هذه هى المرافق العامة الرئيسية فى حياة القرية ، وكان لكل منها نصيب من المحصول ، يدفعه صاحب رأس المال ، كما يدفعه صاحب المجهود الذى بذله العاملون فى فلاحة الأرض ، كل بمقدار .

وهو يدفع لإمام المسجد ، الذى يتولى صيانته ونظافته وإعداده دائماً صالحاً للصلاة .

ويدفع لفقى الكتاب ، ليحفّظ أولادهم القرآن ، وليعلمهم مبادىء القراءة والكتابة ومبادىء الحساب .

ويدفع للشيخ أو القاضى فى بعض التعبيرات ، ليعقد قرانهم ، وينظم علاقاتهم الاجتماعية ، ويفتيهم فى شئون دنياهم ، وربما أضاء لهم طريق آخرتهم ، وبصرهم بالسلوك الذى يؤدى بهم إلى الجنة ، وينجيهم من عذاب النار .

ويدفع للمتولى شئون أخراهم ، ويخصص جهده لتكون قرافة بلدهم مستعدة دائماً لاستقبال من يختارهم الله إلى جواره ،

واستقبال الزوار الذين يداومون على زيارة موتاهم فى الأعياد وفى المناسبات وفى كثير من أيام الجمع، قبل الصلاة.

هذه الأنصبة مقدسة عند أهل بلدنا بلا سلطة، ولا قوة، ولا قانون.

لأنهم يدركون بطبعهم قيمة الخدمات العامة لحياة القرية، ويدركون ضرورة أن يتخصص لها ناس، ويدركون أن لهؤلاء الناس حقوقاً بقدر ما يؤدون للقرية من واجبات.

على أن هذه ليست كل الحقوق.

هناك حقوق لمن اعتادت القرية أن تأتمنه على صحتها، تتداوى عنده، وتقصده، لتجد عنده الإسعاف.

حلاق الصحة، وكان هو طبيب القرية، فى الحالات الطارئة العاجلة، كما يقوم بالحلاقة لأبناء القرية جميعا بلا استثناء.

كذلك كانت هناك حقوق «للداية»، التى تتولى فى القرية مسئولية النساء الحوامل، وأغلب نساء القرى حوامل فى أغلب سنوات العمر، كما تتولى مسئولية الولادة، ثم تتولى اطفال القرية بالعناية حتى يشبوا عن الطوق.

كذلك كانت هناك حقوق للمؤذن، وللمسحراتى، ولبعض الذين يتولون أعمالا هامة قد تختلف فى قرية عنها فى قرية أخرى، وأغلبها نوعان: نصيب ثابت من المحصول حسب درجة

كل صاحب محصول ، ونصيب يدفع عن كل خدمة ، وفقا لما يحتاج إليه كل بيت من هذه الخدمات .

* * *

وهناك أنصبة أخرى مختلفة ، يرسلها أصحاب المحاصيل ، سرا ، وتحت جنح الظلام ، إلى المحتاجين من أسر القرية وبيوتها .

فهذه امرأة مسكينة ، أخذوا ابنها القادر ، إلى القرعة مثلا ، وقت أن كانت القرعة سخرة ، فهل تتركها بلدنا بلا عون أو مدد ؟

إن بلدنا تتعاون ، لتأخذ بيدها حتى يعود ولدها إليها ، أو حتى يشب الصغار ويصبحوا قادرين على أن يعولوها .

وبلدنا تؤمن بأن كل جميل وكل فضل ، وكل خير ، سلف ودين ، فالذى يأخذ اليوم سيأتى يوم يستطيع فيه أن يعطى ، وحينئذ سيعطى عن سماحة ورضا وسرور .

والدين ليس شخصيا ، ولا فرديا ، ولكنه دين الجماعة ، ودين الأجيال .

قد لا يستطيع واحد أن يعطى بقدر ما أخذ . من يدرى ؟ ربما دفع عنه جيل من أجياله يليه .

بل من يدرى ! ربما دفع عنه آخر من أفراد الجماعة أنفسهم ، يقدر على العطاء .

المهم أن يعطى بقدر ما يقدر على العطاء ، ولن تذلّه الحاجة ، إذا حدث له مكروه ، أو فاجأه قدر من الأقدار . سيجد من يعطيه كما أعطى . لا يهم هل الذى يعطيه هو الذى سبق أن أخذ ، لأن بلدنا فى فهمها الاشتراكى لا تعلق كثيراً من الأهمية على هذه الجزيئات .

* * *

وهكذا تعيش بلدنا متعاونة بطبعها ، متكاملة ، متكافلة ، بغير ان تحتاج إلى دراسات أو تركيبات أو تعريفات ، لتحقق هذه الغايات .

ولو أننا رجعنا إلى مجتمع بلدنا الحقيقى لوجدنا حقائق كثيرة مذهلة .

قلما كنا نجد فى بلدنا أسرة واحدة خالية من مسئوليات أسر أخرى أو أفراد آخرين .

بل ربما كان ذلك حتى قريب ، أمراً مستحيلا .

ولا يزال فى بلدنا كثير جداً من مظاهر هذه المشاركة فى تحمل المسئوليات .

كم من رجل فى بلدنا ، عرف كيف يتحمل مسئولية اخته مثلا ، وأولادها جميعاً ، إذا مات زوجها ، ولم يترك ما تقيم به أودها وأود أولادها ؟ .

لمن تذهب ؟ ولمن تلجأ ؟ .

أخوها — وقد يكون صاحب أسرة ومسئوليات — يتولى أمرها وأمر أولادها ، مثلما يتولى أمر نفسه وأمر أولاده ، من غير أن يشعر أنه يقدم جميلا ، أو يتطوع بمعروف ؛ لأنه واجبه درج على أن يؤديه ، فإذا لم يفعل ، فيا ويله من مجتمع بلدنا .

وكم من أخ تولى مسئولية أخوته ، حتى شبوا وكبروا ونضجوا ، وقد ينكرون عليه ما فعل ، وقد يلومونه على ما لم يفعل ، وهو صامت لا ينطق ، وحسبه أنه واجب أداه .

وكم من جار حمل عبء أولاد جار له لم يترك أحداً يعولهم .

... ربما كان السؤال الأكثر مناسبة فى بلدنا ، هو أن نحصى من لم يحدث لهم هذا ، ومن لم تلق عليهم الأقدار بمسئولية من هذا النوع ، لندرك أن القاعدة هى اشتراكية المسئولية وأن ما عداها شذوذ .

لأن بلدنا تؤمن بأن اللقمة التى تطعم واحداً ، تكفى حاجة اثنين .

ولأن بلدنا تؤمن بأن أسلوب حياتنا أن نقتسم ما لدينا .

ولأن بلدنا تفضح من يتهاون فى واجبات الإنسان نحو أخيه الإنسان .

ولأن فى بلدنا من القدرة ما تستطيع به أن تقضى على أى متهاون فى هذه الواجبات أو مستهتر بها .

(٦)

ولقد قدر له أن يترك القرية ، فترك فيهـا قلبه وهواه .
الحوارى والطرقات التى شهدت طفولته وصحبت صباه .
الحقول التى جففت دموعه ، وخففت من أساه .
الأشجار التى مدت عليه ظلالها ، وأطفأت لظاه .
المسجد الذى طالمـا حنا على جبهته وهو يركع ، وفى ساحته طالما رتل القرآن أو تلاه .
القرافة ، حيث رقد أبوه ، واستحال على عينيه مرآه .

* * *

والكتـاب ، والعريف ، ومواسم الحصاد ، وجسور النيل ، وحلقات الذكر ، وقصص الحوريات الفاتنات الرائعات ، وهن يخطفن من يحلو فى عيونهن من الشباب .

قدر له أن يترك هذا كله ، ويذهب إلى المدينة .

وكان يخاف حياة المدينة ، فإن المدينة التى تعلم فيها دروسه الأولى ، لم تكن أكثر من مركز من مراكز الريف ، ولم يكن طابع المدينة فيها يعدو بضع طرقات مرصوفة ، وبضع عربات ترش الماء فى الطرقات ، وأعمدة النور تضىء الشوارع الرئيسية ، والمـأمور .

وما عدا هذا ، فعناصر قرية ، لا تفرق كثيراً عن بلدنا ، ولأهلها طبيعة أهل بلدنا السمحة الطيبة .

أما المدينة الجديدة ، فشيء آخر جديد .

قالوا له إنها عاصمة مديرية من المديريات ، وأنها واسعة وكبيرة ، وأن فيها متنزهاً تسر مناظره الخاطر ، وبالمتنزه أسود ونمور وقرود وفيلة، يحبسونها عن الناس، حتى لا تلتهم الناس .

وقالوا له إن لها مديراً ، وحكمداراً ، وفيها عدد من المأمير ، فضلا عن الضباط والعساكر والمخبرين .

ويقام فيها مولد كل عام ، يفد إليه مليون من الأهالى ، حيث يقيمون الخيام أسابيع ويعيشون فى أذكار وصلوات ، يتبركون بصاحب المولد الكبير .

وقالوا له إن أولاد المدن أشقياء جدا ، بل عفاريت ، وأنهم يسخرون من التلاميذ الفلاحين ، ولا يجدون متعة إلا فى التسلية عليهم ، والضحك منهم .

لهذا كان يخاف المدينة وكان يرهبها .

وهو لا ينسى يوم فارق قريته ، كيف صحا مع الفجر ، ليصلى الصبح حاضرا فى المسجد حيث اعتاد أن يصلى ، بعد أبيه ؟

فما إن فرغ من الصلاة ، حتى خرج إلى الحقول يستودعها

الله ، ويوصيها بما أودعه فى طياتها ، وبين زراعاتها ، وحول قنواتها من أسرار .

لقد التقى فيها بأبيه ، وهو يخجل لو أن أحدا عرف أن لقاء من هذا النوع الوهمى قد تم ، أو أن خياله قد شط حتى تصور الوهم حقيقة يحيا بها ولها ومن أجلها .

وما إن اطمأن إلى أن سره لن يذيع ، حتى عرج على القرافة ، حيث يرقد أبوه .

وهناك بكى كما لم يبك من قبل .

الم يصبح على وشك أن يفارقه للمرة الثانية ؟

وألم تكف مرارة الفراق الأول ؟

وكان ذلك آخر عهده بالإقامة الطويلة المنتظمة فى القرية ، وإن ظلت ذكرياتها بين جفنيه أبدا ، وفى طيات قلبه أبدا ، وفى فكره أبدا ، وفى ضميره أبدا .

وفى المدينة بدأ حياة منعزلة عن الناس ، لا يتجاوز حدود اسرته إلا إلى حدود مدرسته .

وكان فيما بين بيته ومدرسته ، يتعرض كل يوم ، وفى كل خطوة يخطوها ، لأشياء كثيرة جداً ، كانت تدفعه دفعاً شديداً نحو العزلة ، عن حياة المدينة ، والحنين إلى حياة القرية البسيطة الساذجة الطيبة .

ولعله يذكر تلك الأيام القلقة من عمره ، وكيف كانت هذه الأشياء تزيده قلقاً وفزعاً ونفورا .

فالشباب الذى كان يطرق أبوابه ، بسنوات من طفولة حزينة منطوية .

والفراغ الذى كان يملأ نفسه ، بحياة جديدة لم يألفها ولم يعتد عليها .

والذكريات التى كانت تغمر قلبه ، بالأسى والدموع .

والأمنيات التى كانت تداعب خياله ، فتصرفه عن الدنيا وعن الناس ، إلى ما وراء هذه الدنيا وهؤلاء الناس .

والأشياء التى كان يتعرض لها فيما بين بيته ومدرسته .

نساء المدينة مثلا ، وهن يذهبن ويجئن وحدهن ، فى ملابس تكشف عما لم يعهده إلا مخبوءا مستورا ، يتحدثن إلى الباعة ، ويتاقشن فى صوت مسموع ، قد يصل أحياناً إلى درجة الصياح ! وقد تتخلله أحياناً ابتسامات ، بل ربما ضحكات بلا تحفظ ، وبلا اقتصاد .

ورجال المدينة ، وقد رأى منهم نفراً يحرص حرصا فائقاً على أن يبدو أنيقاً ، يكاد مس الريح أن يؤذيه ، ويخرج كل مساء ، يستعرض أناقته وشبابه . ثم لا يغض الطرف

كما اعتاد أن يرى رجال قريته يفعلون ، حينما تصادفهم امرأة غريبة . وإنما يتطلع هذا النفر إلى النساء الغريبات فى شىء يشبه التحدى والتأمل فى غير حياء . وقد يبتسم كما لو كان بينه وبينهن تعارف ، أو كما لو كن جزءا من أهل بيته ! وقد يمشى وراءهن ، يتعابعهن بكلام ، لم يكن يطيق أن يستمع إليه ، وربما لم يكن يجرؤ على أن يستمع إليه ! وقد يتعرض لهن ، وقد يعترض طريقهن فى استخفاف !

وصبيان المدينة الأشقياء ، وكانوا يخرجون فى غير تحفظ ، ولا يخافون مخاطر الطريق ، على ما فيه من الزحام . وعربات الحنطور والسيارات ، ويديرون الحديث فيما بينهم فى جرأة ، ويتناولون من الموضوعات ما لم يكن له به علم !

☆ ☆ ☆

كل ذلك كان يدفعه دفعاً شديداً نحو العزلة عن حياة المدينة ، فقد كان يحس أنه غريب فى هذه البيئة .

وكان طبيعياً أن تستبد به الذكريات ، وأن يزداد تعلقه بها ، وأن تتضاعف حاجته إليها .

وما كانت المدينة بشوارعها الفسيحة ، ولا بزحامها ، ولا بسعتها ، ولا برجالها ، ولا بصبيانها ، لتصرفه عن الرغبة فى أن يجد خلاء ، يتسع لأحاديث نفسه ، وهمسات ضميره ، يخفف

بهذه الأحاديث وهذه الهمسات، قلقه المكبوت.

الحقول الخضراء، الناعسة، الهامسة، يأتمنها على ماقد تجمع في خياله من الرؤى.

الطبيعة الزاهدة، المتصوفة، الكتوم، يبثها ما قد تراكم في قلبه من الهموم.

الزرع، والقنوات، والأشجار، يشكو إليها ما بصدره من الضيق. أين هي ؟

على أنه وجدها، فما كان يستطيع أن يستغني عنها، فهي وسادته اللينة، يلقي عليها بمأساته، فيستريح.

وهناك، بعيداً عن زحام الحياة في المدينة، استعاد شعور الدعة والأمن والطمأنينة، وعادت أحاديثه مع نفسه تتصل من غير عائق.

وانطلقت نفسه كما لم تنطلق من قبل.

وارتاح عقله كما لم يرتح من قبل.

كان الضغط الذي تعرض له في المدينة، قد أثر على حركته النفسية والوجدانية والعقلية، فأخذ يهدد وجوده، ويضاعف مما كان يعانيه من القلق.

ولقد كادت حياته أن تتحول إلى مأساة.

ولقد كادت نفسه أن تتحول إلى مرجل.

ولقد كادت عاطفته أن تجف.

ولقد كادت مشاعره أن تذبل .

فما أن وجد الخلاء ، والفضاء ، والحقول المبسوطة الخضراء، وقنوات الماء ، والفلاحين فى ملابسهم الممزقة الزرقاء ، والطبيعة السمحة الفيحاء ، حتى عادت الثقة إلى نفسه ، بل ربما تملكه شعور يشبه شعور العزة والكرامة والكبرياء .

فقد كان اتصاله بالطبيعة مرة ثانية ، نوعاً من الانتصار ، بل ربما نوعاً من الاستعلاء .

* * *

على أنه لم يكن شاذاً بين أسرته ، فقد كانت حياة الأسرة كلها منعزلة عن حياة المدنية .

لم تكن أمه تزور أو تزار .

ولم يكن أخوه الأكبر يخرج من البيت إلا قليلا .

وأخوه الذى يكبره لم يكن له أصدقاء .

والصغير الطفل ، بدأ يذهب بدوره إلى مدرسة أولية . لتعده للدراسة الابتدائية .

وكانوا يسكنون فى أحد الأحياء الشعبية، وكان سكان المنازل يفرشون أمام منازلهم فى المساء ، ويجلسون على الحصير يتناولون الطعام .

وكانوا بطبيعة الحال يتجمعون ، أو على الأقل يتبادلون

السمر ، وهم يتجاورون أمام عتبات دورهم .

وكانت أمه شديدة التزمت من هذه الناحية ، ولعل تَرَمُّلَّها زادها تزمتا ، حتى لا يشيع أنها خرجت على ضوابط المجتمع وحدوده ، بعد أن رحل الفقيد .

وكانت تكره هذه السهرات أشد الكراهية ، حتى لقد حملت أبناءها على أن يكرهوها معها .

على انه لم يَكن يفهم سببا لموقف أمه من هذه الجلسات أمام عتبات الدور ، فقد أعادت إليه ذكريات المصاطب فى قريته ، وكيف كانت مصاطب القرية منتديات تجمع الناس ، يتذاكرون فيها ويتسامرون .

ولشد ما كان به حنين إلى جلسات المصاطب .

ولشد ما كان يتمنى لو استطاع أن يجلس على عتبة الباب كما يفعل الناس تخليدا لما للمصطبة فى نفسه من الذكرى .

ولكنه لم يكن يستطيع أن يفاتح أمه بدخيلة نفسه ، ولم يكن كذلك يستطيع أن يستثيرها ، وهو يعلم مقدما أنها ستنكر عليه هذا الانحراف ! .

على أنه آثر الصمت على الدخول فى عناد ، مع أم صارمة كسبت كثيرا من صفات الرجال .

* * *

هل كان يمكن أن تستمر حياة الأسرة منعزلة عما حولها من حياة؟. لقد دخل هذه الحياة شيء دفعها على أن تغير خطتها، بل ربما شيئان.

الأول أنه تردد في الحي الذي عاشوا فيه، أن واحدا من السكان قد سقط فجأة مريضا، وأنه لم يقو على الحركة، وأصبح الحي يخاف أن يصيبه مكروه.

ولما علمت أمه، أخذت تسأل حتى علمت أن الرجل المقصود هو جارهم مباشرة، وأنه موظف محدود الدخل، وأن عنده ستة من الأولاد، أكبرهم في الثانية عشرة من عمره.

وعاودتها شهامة بلدنا، فأرسلته يدعو أخاه الأكبر من عمله، ليحضر على الفور، فلما حضر طلبت منه في لهجة حازمة، أن يقصد توا إلى جارهم، وأن يصحبه إلى الطبيب، وأن يحضر له الدواء، وإياه أن يأخذ مليما واحدا من زوجته.

ونفذ أخوه ما قالته أمه، وتابع زياراته وخدماته للأسرة حتى شفي المريض، ولم يسترد ما دفع إلا بعد زمن طويل، في الوقت الذي كانت أمه تبيع من مصاغها قطعة بعد قطعة حتى تفي بالتزامات المدارس.

وكان لهذه الحادثة أثرها في تطور علاقات الأسرة بالحي كله.

وقامت بينها وبين أسره جميعا علاقة من الثقة والوفاء، وبدأ نساء الحي يزرن أمه ورجال الحي يزورون أخاه.

على أن أمه ظلت تقاوم فى عنف، الجلوس على عتبة الدار .

* * *

أما الثانى ، فقد كان أفعل فى الدلالة على أن شعب بلدنا واحد، فى المدينة أو فى القرية على حد سواء .

فقد تعرضت الأسرة لضائقة خانقة ، كادت تطيح بآمالها كلها، وتحول بين الأولاد ، والاستمرار فى دراستهم، بل تهدد بما هو أشد من عدم القدرة على مواصلة الدروس .

وكانت حلى الأم قد فرغت ! وكانت أزمة السنوات العجاف التى تخللت السنوات من سنة ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٣ ، حديث الناس، حتى لم يكن واحد يكاد يطمئن إلى غده .

وترددت على ألسنة الناس حكايات ، منها أن القائم على السلطة فى البلاد ، أقسم أن يجعل الناس يتفرجون على رغيف الخبز ، كما يتفرجون على قطعة نادرة من قطع الآثار !

ودفعت الثقة التى قامت بين الأسرة الريفية وأسر الحى الشعبى فى المدينة الكبيرة . . . دفعت الأم إلى أن تصارح بضائقتها جارة فقيرة من جاراتها .

جارة تعيش هى وزوجها وأولادها يوما بيوم ، وتدخر للمستقبل بضعة قروش ، تضعها فى حصالة ، لم تفتحها منذ سنوات طوال .

ولم تضيع الجارة الفقيرة ثانية واحدة بعد ما سمعت من شكاية الأم المسكينة، فذهبت إلى بيتها وعادت تحمل الحصالة، وكانت من الفخار.

وكسرت الحصّالة، وأخذت تعدّ ما فيها، وكله قروش وأنصاف قروش، وأكبر قطعة فيها كانت من قطع القرشين القديمة الفضية المستديرة، وكانوا يطلقون عليها «نصف فرنك».

واستغرقت العملية وقتا، لأن الأم أخذت تلوم جارتها على كسرها الحصالة، وقد ادخرت ما فيها للزمن، والجارة تحتج على أنها تقيم هذه الفروق بينهما، ولا تعتبر أن ضائقتها، هى ضائقتها أيضا.

على أن عملية العد تمت، وأسفرت النتيجة عن مبلغ يكفى حاجة الأسرة ويزيد، سلمته الجارة لأمه بلا إيصال، ولا شهود، طالبة منها ألا تتعجل فى محاولة سداده، وألا تعيده إليها، إلا إذا انتهت ضائقتها، وتجمع عندها فائض يزيد على احتياجات البيت والأولاد.

وزادت هذه الحادثة ثقة الأسرة بمجتمع المدينة، وأحست الأسرة أن هذا المجتمع امتداد للمجتمع الذى خرجوا منه، بفروق بين بعض الطباع وبعض العادات.

أما هو فقد ظل على حاله حيث كان.

راحته العزلة، وصديقه الخلاء، ولا يحلو له حديث إلا مع نفسه، فيما يشبه النجوى.

على انه بدا يحس مع ذلك ، بشيء من الأنس للمجتمع الذى حوله ، وبدأ يشعر بأن الحواجز التى تفصله عن هذا المجتمع تخف يوما بعد يوم .

على أن أنسه هذا ، ظل صامتا متحفظا ، لم يقترن بنوع من أنواع الصداقة أو العلاقة بأحد من زملاء الدراسة ، أو أبناء الجيران .

ظل حيث هو من نفسه ، بفرق واحد ، هو أن الضغط الذى عاناه من حياته الأولى فى المدينة ، قد أخذ يزول .

* * *

هل كان يقدر ، أو كانت أسرته تقدر ، أن هـذا الطابع الصامت المنعزل يتغير فجأة ، ويصبح اندفاعا كالتيار ، وارتباطا كالميثاق ، يشده إلى الناس ، وإلى حياة الناس ؟

وهل كان فى ظن أحد ، أن يقتحم هذا الفتى المنطوى على نفسه صفوف الجماعة ، من أوسع باب ؟ .

ولكنه حدث فى لحظة ! .

فبينما هو فى الطريق إلى مدرسته ذات يوم ، وجـد جموع الشباب تندفع وتتدافع ، وقد استبدت بها غضبة ، وتطاير من عيونها شرر النار .

ولم يكن قد رأى مظاهرة من قبل ، ولم يكن قد شارك فى مظاهرة من قبل .

ولكنه كان يعرف المظاهرات ، وعاش فيها ، حينما كان يقرأ عنها فى مختلف ما تركه المؤرخون .

ولكم شارك فى هذه المظاهرات بدموعه ، عندما كان يقرأ عن الذين ذهبوا من الشهداء ، والذين سقطوا من الجرحى والذين عذبوا من الشرفاء .

وشارك فى هذه المظاهرات بقلمه ، فقد كان يدون خواطره بين الحين والحين ، يروى بالقلم مالا يستطيع أن يرويه باللسان .

وشارك فى هذه المظاهرات بروحه ، فقد كان يقرأ قصص الماضى ، ويتأمل صور الحاضر ، ويتطلع إلى أمل المستقبل .

ولم تكن فكرته الوطنية قد اكتملت تماما ، ولكنها كانت قد بدأت تعبر عن نفسها على أية حال .

والمأساة التى ملأت حياته .

والمحنة التى بللت جفنيه .

والذكريات والأمنيات والرؤى والأحلام .

كل ذلك طوى نفسه على ذخيرة ضخمة من القلق والألم والضيق ، وجعل إرادته مهيأة للانفجار .

بل لطالما انفجرت هذه الإرادة ، فيما كان يرسله من دموع ، وفيما كان يطلقه من أحاديث ، وفيما كان يسجله من خواطر .

ولكن انفجارها كان محدودا بحدوده هو ، لم يتجاوز

شخصه ، ولم يتعد نطاقه الخاص .

ولم تنتظم له من قبل إرادة ، مع أرادة أخرى .

لم تنتظم له من قبل إرادة فى إرادة الجماعة .

فلما رأى هذه المظاهرة ، أحس إحساسا جديدا لم يكن يتوقعه من قبل .

أحس أن كل واحد من هؤلاء ، وهم يسيرون فى غضب ، ويهتفون فى سخط ، وينادون بحياة الوطن فى حماسة .

أحس أن كل واحد من هؤلاء يمثله ، وينطق باسمه ، ويعبر عما اختزن فى نفسه فى المحنة والمأساة .

وانطلق معهم ، يود لو استطاع أن يقول لهم كلاما قد يطول .

وواتته الفرصة ، عندما بدأ الاحتكاك بالشرطة ، وتفرقت الجموع ، ثم عادت تتجمع فى فناء مدرسته ، لتستأنف الجولة مرة أخرى .

هناك وقف خطيبا ، وقال كل ما كان يحدث به نفسه من قبل .

لم يقله هذه المرة فى الخلاء ولا فى الفضاء .

لم يقله هذه المرة همسا ، أو كالنجوى .

لم يقله هذه المرة للزرع والحقول ، فيرتد إليه .

وإنما قاله هذه المرة للناس . لمن يعرف من الناس ، ولمن لا يعرف من هؤلاء الناس .

وما كان يدرى تماما ماذا يقول .
ولكنه لا يزال يذكر أن كلامه قوبل بالتصفيق والإعجاب والحماسة.
ولا يزال يذكر أن عددا من الناس تقدموا إليه يحملونه على الأعناق ، ويتقدمون به صفوف المتظاهرين .

* * *

وإنه ليذكر أن حياته من بعد ذلك أخذت شكلا جديدا .
فقد صهرته التجربة الجديدة ، وربطته بالناس برباط غريب من الحب ، ونشأت بينه وبينهم مشاعر جديدة ، زاخرة بالثقة ، قائمة على المحنة الواحدة ، والمصير الواحد .
وأدرك لونا جديدا من الاشتراكية فى حياته هذه الجديدة .
لونا أحسه ، وتذوقه ، ورضى عنه ، وفرح به .
اشتراكية وجدانية ، أساسها الشعور العام بما يحيط بحياة الناس من ظروف ، وما يحيط ببلادهم من عوامل ، وما يقيد حرية الفرد وحرية الجماعة من ظلم وظلام .
اشتراكيه ضمير الفرد ، يندمج اندماجا تاما فى ضمير الجماعة ، لتحقيق الهدف العام ، الذى تسعى الجماعة كلها لتحقيقه ، بكل ما تملكه من قوة ، وبكل ما تدخره من تجربة .
ولقد مرت به محنة جديدة ، يوم قبضوا عليه ليكفوا انفسهم شره ، ويوم قادوه إلى مركز الشرطة . ليلقوا به فى

غرفة صغيرة مظلمة ، خالية إلا من إناء للشرب ، وإناء آخر لقضاء الحاجة .

ولعلهم تعمدوا أن يملأوا غرفته هذه الضيقة المظلمة بعدد من المحجوزين على ذمة قضايا السرقة والنهب والاحتيال والاعتداء على الناس .

ولكنه أنس إلى هؤلاء جميعا ، وأنسوا إليه .

فلقد أدرك لأول وهلة أنهم مظلومون ، وأنهم كذلك معذورون ، فالإنسان الذى يحيا فى وطن مسلوب الحرية ، لا يمكن أن يتحمل وحده مسئولية الانحراف ، أو مسئولية هجوع الضمير . الذين احتلوا بلاده ، وسلبوا حريته ، عاقوه عن أن تنمو شخصيته فى جو طبيعى يسمح بهذا النمو ، ويحمّله وحده المسئولية إذا أخطأ أو مال .

والذين وضعوا أنفسهم فى خدمة المحتلين ، من العملاء والأذناب ، سدوا الطريق بينه وبين المحتلين ، فعاقوا تقدم الفرد وتقدم الجماعة فى الطريق الطبيعى ، الذى يلقى على كل منهم مسئولية ما يفعله .

ولكم دارت بينه وبين هؤلاء المساكين من أحاديث ومناقشات .

ولكم روى لهم كلاماً عما قرأه مما كتبه المؤرخون عن

الكفاح ، فكانوا يهتزون بما كان لآبائهم وأجدادهم من فروسية كفروسية أبطال القصص الشعبي .

وقامت بينه وبينهم اشتراكية المحنة ، وقد عرفها من قبل فى قريته .

ووثقوا به ثقة عميقة ، انبثقت من قلوبهم ، فأحلوه مكاناً خاصاً من هذه الحجرة الضيقة المظلمة ، وحاولوا أن يوفروا له كل ما استطاعوا أن يوفروه من الراحة .

وكانت راحته الكبرى فيما غمره من شعور بالراحة والثقة ، فى هؤلاء المخطئين .

لقد أحبهم وأحبوه .

ولقد بكوا عند ما أقبل رجال الشرطة ليأخذوه .

فإن الخطوة التالية ، كانت غرفة أخرى فى سجن المدينة .

وعندما بكوا تأثر رجال الشرطة أنفسهم لهذا البكاء ، فأدرك على الفور أن اشتراكية المحنة أعم وأشمل ، من أن تربطه بزملائه المتظاهرين ، فإنها كذلك تربطه بزملاء فى الوطن آخرين ، مخطئين . . بل وبزملاء فى الوطن آخرين ، من الذين وضعوهم ليحرسوه ، وليحولوا بينه وبين ما ينشده من الحرية .

هذه الاشتراكية التى أحسها ، كانت هى اشتراكية الوطن ، واشتراكية الشعور الوطنى ، تعم جميع القلوب البسيطة الساذجة ،

وتربط جميع الضمائر الطاهرة الشريفة ، بلا تفرقة ولا استثناء .

* * *

وفى السجن تأكدت له هذه الاشتراكية بشكل واضح .
فلقد شاءوا أن يكون حبسه انفرادياً .

وما أشق على النفس ، أن تضطر إلى هذه الانفرادية كارهة!
ولكنه لم يحس أبداً هـذه المشقة ، فقد امتلأت حياته في السجن بعناصر جميلة هائلة ، جعلت حجرة حبسه الضيقة ، أكثر سعة من الخلاء والفضاء ، والحقول الواسعة الخضراء .

فقد كان طعامه يصله بانتظام .

بل كان يصل أضعاف ما كان يكفيه .

ولم يكن كله مرسلا من بيته ، بل كان يرسل إليه ممن لا يعرف وممن لم يعرف حتى اليوم !

وعجب وبكى ، من فرط ما أثرت فيه هذه العناية بأمره ، من ناس ، ربما لم يروه فى حياتهم ، ولم يعرفوه ولم يسمعوه .

على أنه كان يكتفى بما ترسله إليه أمه من طعام ، فقد كان طعام أمه إليه قبلات صادقة ، يحب أن يتلقاها فى الصباح ، وعند الظهر ، وكلما أقبل المساء .

قبلات ندية تعبر عن إعجابها بفروسيته ، وتلخص بها مشاعر إخوته جميعاً .

ألم تنظر إليه فى إعجاب يوم أخرج عصا أبيه من الدولاب ، ليرد بها عاراً كاد ينتهك حرمة أحزانه ؟

فكيف بها اليوم ، وقد أخرج سلاحاً من إيمانه ببلاده ، ليرد به عاراً يشوه جلال الوطن ؟

لا شك أنها فرحة به ، مطمئنة إليه ، راضية عنه .

ولا شك أن الأسرة كلها تشاركها هذا الفرح ، وهذا الاطمئنان ، وهذا الرضى .

ثم هل ينسى ، أو يستطيع أن ينسى هؤلاء النزلاء من المساجين ، وكيف كانوا يملأون حجرته بالبطاطين ، يضعون بعضها فوق بعض ، ليتكون منها فراش دافىء ووثير ، يقيه برد ليالى السجن ، ويرد عنه ما عسى أن يصيبه من مكروه ؟

لقد آثر هؤلاء أن يناموا على أرض من الأسفلت ، ليهيئوا له الراحة !

وهم بعد مساجين ، محكوم عليهم بالحبس أو بالسجن سنين طويلة ، وقد يكون بينهم قاتل ، أو سارق ، أو معتد على عرض ، أو منتهك لحرمة !

ولكن ذلك لم يكن عليه بجديد ، بعدما أدرك فى مركز الشرطة كيف جمعت اشتراكية الوطن ، بين المخطىء والمذنب والآثم ، وبين الفاضل والخير والمستقيم .

كلهم وطنيون . وكلهم معذورون .

ولو أنهم نشأوا فى مجتمع حر ، وتهيأ لهم الجو الطبيعى ، الذى تنمو فيه شخصياتهم بلا عقبات ، إذن لأمكن أن يتحمل كل منهم مسئولية ما تقترفه يداه .

* * *

وكان يوم خروجه من السجن يوماً حزينا . فلقد أحس أن صلة وجدانية ، قامت بينه وبين النزلاء من المساجين .

ولقد وقفوا يلوحون له ويطلبون له التوفيق فيما بدأه من كفاح .

أما هو فقد أخذ يطيل النظر إلى وجوههم ، ليزداد شعوره باشتراكية الوطن تمكنا من نفسه ، وليتزود مما يراه فى عيونهم ، بالإيمان بأن هذه الاشتراكية فى الوطن ، ليست حكرا على الذين يتظاهرون ، وليست وقفا على الذين يعملون فى ميدان السياسة ، ولكنها حظ شائع ، للناس جميعاً نصيب فيه .

بل إنها ليست عملا سياسياً بالمعنى المعروف ، ولكنها ضرورة اجتماعية ، تحتمها ظروف البيئة ، وما تتطلع إليه هذه البيئة ، من توفير ضمانات النمو للأفراد وللجماعة .

* * *

فلما انتقل إلى القاهرة ، ليستكمل دراسته فى الجامعة ، لم

يكن محتاجا إلى أن يثق بالناس ، بعد أن تمكنت هذه الثقة من نفسه ، فكان يختلط بهم فى شوارع الحى الذى يعيش فيه وفى الدكاكين وفى المقاهى .

وعرفهم عن كثب ، وأدرك أنهم هم أنفسهم ناس بلدنا ، فيهم نفس الشهامة ، ونفس المروءة ، ونفس الاشتراكية فى الوجدان ، وفى تحمل مسئوليات الحياة ، وفى الكفاح من أجل حرية الوطن ، وحرية الإنسان .

ورأى مساجد القاهرة تزخر بشباب من كل لون ، وكل صنف ، حتى الغرباء الوافدين إلى القاهرة ، من عواصم أخرى بعيدة سمع عنها فى الكتب ، ولكنه لم ير منها واحدا من قبل .

وكان هؤلاء يجتمعون ليتبادلوا العلم ، ويتذاكروا فى دراساتهم ، وكانت بينهم اشتراكية حقيقية غير مصنوعة .

كبيرهم سناً أو علماً ، يجلس منهم مجلس المعلم ، يوضح لهم ما غمض ، ويفسر لهم ما دق ، ويعطيهم نتيجة تجاربه ، وخلاصة معارفه .

بل إنهم ليتوارثون كتب الدراسة ، حتى يوفروا ثمنها لشىء آخر . . للطعام أو الملبس أو المسكن .

فإذا مرض أحدهم أو قابل شدة ، فهم جميعاً أعوانه .

ورأى كيف تتحول مساكن الطلاب إلى حلقات استذكار ،

وحلقات تعاون ثقافى مفعم بالود والصدق والإخلاص.

وكانت ظروف الحياة تضطر بعض الطلاب إلى عمل من الأعمال ليعيش، فيقوم الآخرون عنه بالاستماع إلى الدروس، ثم يقومون عنه بنقل المحاضرات.

فإذا ما دخل الامتحان لم يحس أن بينه وبينهم فرقا، وأنه على نفس المستوى من التأهب والاستعداد.

* * *

أما اشتراكية الوطن، واشتراكية الكفاح، فقد أخذت أكثر من شكل فى حياته الجديدة.

لقد تحطم ما كان يحجزه عن الناس، وتمكنت منه روح الجماعة، وأصبح من المستحيل عليه أن ينعزل، بعد ما بلغت منه المفهومات الجديدة مبلغ العقيدة والإيمان.

وشارك مجموعات الشباب فى الكفاح، بمختلف صوره وأشكاله، وربما جرفه التقدير إلى خطأ، وربما قادته قدماه إلى حيث تعثر فى بعض الأحيان.

ولكنه كان ماضيا فى طريق يؤمن بأن المضى فيه، ضرورة يحتمها الواجب الوطنى، وإنقاذ المجتمع مما تردى فيه من فساد.

ولكم شهد من جمعيات تتكون، وحلقات تعقد واجتماعات تقام.

ولكم رأى كيف يتطوع الشباب ، وكيف يهرع إلى نداءات الحرية والإنقاذ .

ولكم شارك فى جمع التبرعات ، لمن يحتاجون إلى هذه التبرعات ليقيموا بها أودهم ؛ فلم يجد إلا تلبية واستجابة ؛ طالما أن الهدف هو تحرير البلاد من الدخلاء والعملاء .

وعرف كيف يتعاون مع من يعرف ومن لا يعرف ، لتحقيق الأهداف الكبرى التى آمن بها ، إيمانا لا يدخله الشك من بين يديه أو من خلفه .

وعرف كيف يسند الآخرين ، عندما تعوزهم إليه حاجة ، وكيف يستند إلى الآخرين عندما يحتاج .

لقد صهرته روح الجماعة ، واشتراكية الجماعة ، فلم يعد بينه وبينها حجاب .

* * *

هل نسى المكتبة ، وهى مكانه الأثير الحبيب ؟

وهل نسى فى القاهرة الخلاء ، والفضاء ، والحقول الخضراء ، وهى وسيلته إلى العزاء ، كلما عاودته ذكريات تحتاج إلى هذا العزاء ؟

وهل قضت روح الجماعة ، على ما فى نفسه من حزن دفين قديم ، أو هل طغت روح الجماعة ، على عناصر نفسه ، ومقومات شخصيته ؟

قد يكون العكس هو الصحيح .

فقد ساعدته روح الجماعة على أن تمضى نفسه فى طريق نموها الطبيعى ، وعاونته روح الجماعة ، على أن تتشكل شخصيته بالشكل الذى يحفظ لها مقوماتها ، بل ويقوى فيها هذه المقومات .

وظلت المكتبة .

وظل الخلاء ، والفضاء ، والحقول الخضراء .

وظلت أحاديثه مع نفسه ، ونجوى سريرته ، متصلة لا تنقطع .

بل ربما أصبحت كل هذه العناصر أجمل عنده وآثر لديه ، فقد بدأ يستمتع بها أكثر مما كان يستمتع من قبل ، ويفيد منها أكثر مما كان يفيد من قبل .

وعنها ، وعن طريقها ، أخذ يطهر نفسه من أية شائبة قد تصيبها .

وعنها وعن طريقها ، أخذ يختزن فى نفسه الشعور بالجمال ، وبمظاهر هذا الجمال ، فيما يتميز به مجتمعنا من اشتراكية خاصة ، لها جذورها فى نفوسنا ، وأصالتها فى ضمائرنا ، وامتدادها فى حياتنا .

وعنها ، وعن طريقها ، أخذ يجمع كل ما كان يستطيع من معرفة ببلدنا ، وأهل بلدنا وتاريخ بلدنا ، واشتراكية بلدنا ، فى كل قطاع من قطاعاتها .

ولطالما كان يمضى وحده ، فى طرقات القاهرة القديمة ، يحاول أن يستعيد ما كانت عليه عبر الأجيال ، وكيف كانت أحياؤها ، وكيف كان أسلوب الحياة فيها ، وكيف استطاع سكانها أن يتغلبوا على كل وافد عليها بسوء ، بقوة الصبر ، وبالقدرة على التحمل ، وبالتجمل .

وبشىء آخر أكثر فاعلية من هذا كله .

بالاشتراكية الأصيلة العميقة فيهم . باشتراكيتهم هم ، المتوارثة من جيل إلى جيل .

اشتراكية الوجدان ، وتحمل مسئوليات الحياة .

اشتراكية النعمة ، واشتراكية الشقاء .

اشتراكية العقل ، واشتراكية القلب ، واشتراكية الإرادة .

اشتراكية بلدنا ، وما تنطوى عليه من شهامة ، وشجاعة ، ومروءة ، وتضحية .

اشتراكية العاطفة ، التى تذيب الحقد ، وتصهر الحسد ، وتطهر النفوس .

* * *

على أن التطور لم يقف به عند هذا الحد ، ولا انتهى به عند هذه الغاية ، فقد كانت حياته كلها سلسلة ، أحكم القدر حلقاتها .

ولقد اعتاد أن يؤمن بالقدر، خيره وشره، فإن الإيمان به جزء من الإيمان بالله، وبالرسل، وباليوم الآخر.

ولم يتمرد يوماً على ما كان من قدره، فقد نشأ على أن الكفر بالقدر، كفر بالله، وخروج على طاعته.

ولقد ساقه قدره إلى طريق طويل شاق، وسلك به مسالك متشعبة من المحن والتجارب، حتى لقد كاد طول الطريق، ينهك قواه، ويدمى قدميه.

وإنه ليتلفت إلى وراء، لينظر إلى هذه الرحلة الطويلة المضنية، كمن يتحسس جروحه بيديه، ليطمئن إلى أنها جفت والتأمت، ولم تخلف من الآثار، إلا ما تخلفه الأقدام في الرمال!

ولعله يتلفت إلى وراء، ليرى هذه الرحلة الطويلة المضنية، وقد كانت قدراً مخبوءاً في ضمير الغيب، فلربما كشفت له آثارها، بعض ما يخبئه له قدره في صفحة المستقبل.

على أنه يصاب بحيْرة، أقرب إلى الدوار.

فهو منذ نشأ في أسرته البسيطة المحدودة، لم يكن يعرف أن لها امتداداً عميقاً في قريته.

ولكن التجارب أثبتت له أن أسرته البسيطة المحدودة، ليست إلا جزءا من قريته، وأنها ليست بعيدة عنها، أو غريبة

عليها ، او دخيلة فيها ، ولكنها منها ، وعليها ، ولها .

ولما شب فى قريته الصغيرة المحدودة ، لم يكن يعرف أن لها امتدادا خارج حدود القرية .

ولكن التجارب أثبتت له أن قريته الصغيرة المحدودة ، ليست إلا جزءا فى بلده الكبير ، وأنها ليست بعيدة عنها أو غريبة عليها ، أو دخيلة فيها ، ولكنها منها ، وعليها ، ولها .

ولما تعرض للتجربة فصهرته التجربة فى الجماعة ، آمن بالمدينة ، دون أن يعرف أن لها امتدادا خارج حدود مدينته .

ولكن التجارب أثبتت له أن مدينته هذه ، ليست إلا جزءا من وطنه ، وأنها ليست بعيدة عنه ، أو غريبة عليه ، أو دخيلة فيه ، ولكنها منه ، وعليه ، وله .

ولما مارس حياة العاصمة ، ومارس الاشتغال بالقضايا العامة ، لم يكن يدرى أن لوطنه امتدادا خارج حدوده الجغرافية .

ولكنه قدره . ساقه إلى أن يعلم ما لم يكن يعلم ، وأن يقف على مايثبت له بمالا يقبل الشك ، أن وطنه ليس إلا جزءا من وطن كبير ، كبيرا جدا . أكبر كثيرا مما كان يتصور ، حيث يسرى بين الناس شعور واحد ، وألم واحد ، وأمل واحد .

* * *

وقدر له ان يذهب إلى فلسطين ، وان يجد نفسه فى مدينة من مدنها ، بلا أهل ولا صديق ، والخطر يحدق بالناس من كل جانب

وكان الوقت غروبا ، ولم يجد مكانا يقضى فيه ليلته . فمشى فى الطرقات يتأمل المدينة ، ويحاول أن يتعرف على معالمها ، وعلى ناسها .

وتعب ، وجاع ، ولكنه كان قد اعتاد الصبر والتحمل .

على أن الغربة تبدو على الغريب ، مهما حاول إخفاءها . وكم أدهشه أن تقدمت إليه سيدة مسنة ، شعرها أشيب ، وقد بدا عليها وقار .

وسألته من أين ؟ فلما عرفت أنه غريب ، أقسمت ألا يبيتن إلا فى دارها ، ومع أولادها .

وفى هذه الدار ، أكل ، وشرب ، وارتاح ، ورأى ضيوفا آخرين من اللاجئين فى ردهات المنزل وطرقاته وفنائه ، يتقاسمون جميعا اللقمة ، ويتعاونون على المحنة ، ويتأهبون لملاقاة أعدائهم فى أى وقت وفى أى مكان .

هى تماما ملامح بلدنا ، كما رآها فى القرية وفى المدينة الصغيرة ، وفى العاصمة .

وكما قدر له أن يذهب إلى فلسطين ، فقد قدر له كذلك أن

يزور الأردن، وسورية، والعراق، ولبنان، وبلادا أخرى كثيرة

ولقد أكدت زياراته لهذه البقاع، أن لبلدنا امتدادا خارج حدودها، وراوده دائما الاعتقاد، بأن هذه الحدود ليست هى حدود بلدنا الطبيعية، وأنها ليست إلا خيطاً من الوهم، أقاموه حول بلدنا، ليعزلوه، وليفصلوه، وليضعفوه.

☆ ☆ ☆

الناس فى هذه البلاد، هم الناس فى بلدنا.

والطبيعة والطبع والطابع، هى الطبيعة والطبع والطابع فى بلدنا.

والصفات، والمميزات، والملامح، هى الصفات والمميزات والملامح فى بلدنا.

☆ ☆ ☆

وأخذ يجتر قراءاته القديمة، عن هذه البلاد، ومدارسها الفكرية، واتجاهات الرأى فيها، وأساتذتها، والعلوم التى نمت فى رعايتها.

وردد كثيراً مما حفظ من شعر، وهو يسير وحده فى طرقاتها، وذكر كثيراً من الأماكن التى سجلها الشعراء والمغنون، فيما خلفوا من شعر وغناء.

وفى حلب ذكر سليمان الحلبي ، العربى ابن حلب ، الذى عز عليه أن يرى مصر ، أيام الحملة الفرنسية عليها، وقد احتلها محتل وأخذ يعبث بمقدساتها ، ويضلل الناس عن نواياه .

ولم يتردد الفتى العربى الشجاع ، فاختبأ فى حديقة القائد الفرنسى وفى يمينه مدية حادة ، وفى شماله قلب شجاع ، فلما لاحت الفرصة ، قتل القائد الذى انتهك حرمة البلاد .

ذكر هذا وهو فى حلب ، وأخذ يتحدث إلى نفسه عن هذا الفتى ،ويستعيد ما قرأه عن محاكمته ، ويتطلع إلى الوجوه التى يصادفها فى الطريق ، وهو يتصور أن أى واحد من هؤلاء يمكن أن يكون سليمان الحلبى ، لو احتاجت بلاده إلى التضحية والفداء .

وأحس إحساساً قوياً جارفا أن اشتراكية بلدنا أوسع كثيراً من حدود القرية ، والمدينة ، والإقليم.

إنها اشتراكية العرب ، منذ بدأ الإيمان يدخل حياتهم فأخذوا يتقاسمون لبن الشاه ، ويتقاسمون مياه العيون ، ويتقاسمون كذلك وبر الإبل .

وما عرف التاريخ أسرع من العرب نجدة للمظلوم .

وما عرف التاريخ أصلب من العرب فى الشعور باشتراكية الوجدان .

وتأكد له من زياراته أن إيماناً بالاشتراكية يسرى فى قلوب العرب مسرى الدم ، وأنهم لا يهتمون بأن يعرفوا ما هى ، ولا ما حدودها . وإنما يكتفون بأن يدركوا بما فيهم من دقة حس ، وشفافية ، أنها العدالة التى نزلت بها أديانهم ، والتقت عندها عقائدهم من قديم الزمان .

ولكن قدره لم يقف به عند هذه التجربة ، فقد دفعه إلى خارج بلدنا ، حيث استطاع أن يفكر على مهل ، وأن يتأمل فى رفق ، وأن يستعرض ما مر به من الماضى ، فلربما أضاء له هذا الماضى ، الطريق إلى المستقبل .

ولطالما فكر فيما بينه وبين نفسه ، فيما كان يمر ببلدنا من ظروف .

فبلدنا ، تعيش حياتها تطبق نوعا من الاشتراكية العميقة الأصيلة ، غير معتمدة إلا على ذوقها الخص ، غير مستندة إلا إلى ظروف البيئة والناس .

والذين يحيون فى بلدنا ، حياة طبيعية : لا تعوقها المصالح الخاصة ، يتطورون كما تطور هو ، وكما تطور الملايين من أبناء بلدنا .

وتأكد له أن هذه الاشتراكية هى أقوى سلاح فى تحرير

بلدنا ، من الاحتلال ، ومن الحكم الأجنبي بألوانه ، ومن العملاء .

ولعل هذا هو ما دفع الاحتلال وعملاءه إلى محاولة إفساد بلدنا ، بإدخال عناصر غريبة عليها ، وتحويلها عن هذا الاتجاه الاشتراكى الأصيل .

فإن اشتراكية بلدنا هى التيار الخفى الذى يربط الناس برباط قدسى ، من الرحمة والتراحم .

هى الخيط الرفيع الذى لا يكاد يرى ، ولكنه يشد الناس بعضهم إلى بعض متعاونين فى النعيم ، متعاونين كذلك فى الشقاء .

هى أن بلدنا عرفت كيف تتحكم فيمن احتلوها بالصبر على الجوع والعرى والحرمان .

باللقمة الجافة تتقاسمها عند الحاجة .

بالتفانى ، و التضحية والفداء .

بأسلوب مطاولة المحتل ، حتى يشنق نفسه بيديه .

على أن هذا لم يكن اعتقاده وحده ، فقد كان اعتقاد أبناء بلدنا جميعاً ، إلا الذين فى قلوبهم مرض ، أو فى عيونهم قذى ، أو فى آذانهم وقر .

إلا الذين أعمتهم مصالحهم ، فلم يصبحوا قادرين على أن يتبينوا النور من الظلام .

إلا الذين خروا صرعى العناصر الدخيلة على بلدنا ، فأخذوا يغطون آثامهم وأهواءهم ومصالحهم بكلام عن الحرية ، وهم عبيد أرقاء ، ينخر ذل الشهوة ضمائرهم .

* * *

وكانت جولاته فى بلاد العالم تجربة أخيرة أكدت له مدى ما تحتاج إليه بلدنا من العودة إلى طبيعتها الأصيلة .

ولم يكن وحده فيما انتهى إليه ، ولكنه كان اعتقاد الملايين ، يقولونه، ثم يطوون قلوبهم على يأس كالعلقم .

وكان سؤالهم جميعا : متى ؟ ومن ؟ وكيف ؟

على أن الجواب كان سراً فى ضمير قدر عادل .

(٧)

عاش حتى رأى كل شيء .

عاش حتى رأى أن أبناء بلدنا الطبيعيين ، قد انتصروا على الدخلاء ، والعملاء والمخدوعين ، وأصحاب المصالح والأهواء .

عاش حتى رأى مواكب النصر ، مشرقة وضاءة بالأمل .

عاش حتى رأى اشتراكية بلدنا حقيقية ، نابعة من قلبها الكبير ، ومن عقلها ومن إرادتها .

وعاش حتى رأى أن بلدنا ليست هي قريته الصغيرة ، ولا مدينته الأولى ، ولا القاهرة ، ولكنها بلاد واسعة جدا ، غنية جدا ، هائلة بكل ما فيها من معنويات ومن طاقات ومن فهم ، ومن ذوق ، ومن شعور ، بما للإنسان — كل إنسان — من حقوق .

وعاش حتى سمع صوتا منسابا كهدير الموج ، مدويا كالرعد ، باترا كالسيف ، حاسما كالقدر ، صادقا كالحقيقة .

صوت يقول للمستعمر : لا بد من جلاء .

فيتم هذا الجلاء .

صوت يصيح فى الانتهازيين العملاء : سنقضى على تحكم راس المال فى الحكم .

فيتم القضاء على تحكم رأس المال فى الحكم .

صوت يعلن تأميم قناة السويس .

فيتم تأميم قناة السويس .

صوت يهدد المعتدين الثلاثة بأن مصيرهم فى بلادنا هو الفناء .

فيتم انسحاب المعتدين الثلاثة من أرض الوطن .

صوت ينادى بإقامة السد العالى .

فتتم إجراءات بناء السد العالى .

صوت يطالب العرب بالتآخى لسد المنافذ على مؤامرات المتآمرين .

فيتم أول بناء فى صرح القومية العربية .

* * *

أى صوت يكون ؟

أهو صوت القدر العادل ، يعوض الصابرين عما صبروا ؟

أهو صوت بلدنا موحدا ، وقد انتصر روحها الاشتراكى الأصيل ، فارتفع نداؤه فوق كل نداء ؟

أهو صوتنا ... كلنا ... كل واحد منا ينادى بأن اشتراكية بلدنا ، من بلدنا ولبلدنا ؟

أهو صوت القائد البطل الرئيس جمال عبد الناصر الذى قاد هذه الانتفاضة فى بلدنا ، لبلادنا كلها ؟

أم هو كل ذلك جميعا ؟

* * *

إنه بلا شك كل ذلك جميعا ، ينطلق فى عزة وكرامة على لسان واحد منا ، قاد معاركنا ؛ لتحقيق هذه العزة الكرامة وهذا الكبرياء ، لكل أبناء بلدنا .

ولتحقيق اشتراكية بلدنا ؛ نابعة من طبيعة بلدنا

لإقامة العدل بين الناس ، فى الرزق والكرامة ، والحـ ـة ، والأمن ، والسعادة ، والرخاء .

لإعادة روح مجتمعنا الأصيل ، تغمر قلوبنا بالعاطفة ، و رءوسنا بالوعى ، وتدفع إرادتنا نحو البناء .

لانطلاقة حرة تنمو فيها شخصية الفرد ، و تنـ شخصية الجماعة .

للمستقبل ، للحياة ، للإنسان .